من مشكاة العلماء

مختارات من كلام العلماء السابقين

في العلم والدعوة والأخلاق

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

من مشـــــــكاة العلمـــــاء

مختارات من كلام العلماء السابقين
في العلم والدعوة والأخلاق

اختارها وجمعها

د. عبدالرحمن بن علي بن محمد العسكر

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين

وبعد:

فإن طالب العلم بحاجة بين فترة وأخرى إلىٰ ما ينشط همته في طلب العلم أو الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، والصبر علىٰ ذلك، وحسن تعامله مع الناس في تعليمهم ودعوتهم.

كما أن طالب العلم لنفسه مع العلم إقبال وإدبار، فهو أمرٌ لابد منه، فإقبالها أنْ يكون نشيطاً يجتهد في الحفظ أو في البحث، أو في التعليم بقوة وإقبال، ثم يرى من نفسه خمولاً في ذلك، وميلاً نحو الراحة، والاستجمام العلمي، فهو أحوج ما يكون إلىٰ إشغال نفسه بمُلَح العلم ولطائفه، حتىٰ تعود له همته ونشاطه، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً؛ فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت فألزموها الفرائض»[(١)]، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن لهذه القلوب شهوة وإقبالاً، وإن لها فترة وإدباراً، فخذوها

(١) ذكره ابن القيم منسوباً إلىٰ عمر في كتابه مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ١٢٦).

عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها»[(١)].

ويقول أبو يزيد البسطامي: «عالجت كل شيء، فما عالجت أصعب من معالجة نفسي، وما شيء أهون عليَّ منها»، وقال: «عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشد عليَّ من العلم ومتابعته»[(٢)]، لأجل ذلك يجد طالب العلم في نفسه نفرة أحياناً من البحث والمطالعة، وهو أحوج ما يكون إلىٰ ما يرقي نفسه، ويعيد لها نشاطها وأنسها بالعلم، فقد قال ابن القيم: «فالطالب الجاد: لا بد أن تعرض له فترة، فيشتاق في تلك الفترة إلىٰ حاله وقت الطلب والاجتهاد»[(٣)].

ورغبة في استنهاض همة الطالب والراغب في الخير، وتسليته أحياناً جاء هذا الكتاب، الذي هو في أصله ما كان يمر بي أثناء القراءة أو البحث، من كلام لبعض علماء الإسلام، حول طلب العلم وما يتصل به من أخلاق وآداب، أو الحث علىٰ الدعوة إلىٰ الله، وتعامل الداعية مع المدعوين، إلىٰ غير ذلك، مما ذكره العلماء في غير مظنته في الكتب، وكنت أرغب جمعها وإخراجها في مكان واحد، ليسهل الاطلاع عليها، وتكون عوناً لطالب العلم والداعي إلىٰ الله تعالىٰ منشطة له في فترته عن العلم أو الدعوة، كما أنها مناسبة ـ أيضاً ـ للقراءة في الدروس والمجالس والمنتديات ونحوها.

---

(١) أخرجه بألفاظ مختلفة: ابن المبارك في الزهد (١٣٣١)، وابن أبي شيبة (٢٦٥١١)، وغيرهما، بعضهم مطولا وبعضهم مختصرا، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٠/ ٢٣٥) رواه الطبراني بإسناد منقطع، ورجال إسناده ثقات.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ٣٦).

(٣) مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم (٣/ ١٢١).

حرصت فيها علىٰ أن تكون قصيرة، لتكون سهلة المتناول، فهي موجهة للعالم وطالب العلم ومن سلك طريقهم.

وقد اكتفيت فيها بوضع عنوان لكل نقل، وتعريف في أوله بموضوعه، وقد أحذف بعض الكلام الذي لا علاقة له بمقصود النقل، كأن يكون استطراداً في مسألة عرضت، أو إلحاقاً لمسألة سابقة، وأشير إلىٰ ذلك عند نهاية النقل، ورتبتها حسب مواضيعها لا حسب وفيات قائليها.

واسأل الله تعالىٰ أن يرحم علماء الإسلام علىٰ ما بيَّنوا وأوضحوا، وأن ينفع بهذا الجمع قائله ابتداء وجامعه وقارئه، وأن يرزقنا جميعاً القبول في سائر أعمالنا، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

عبدالرحمن بن علي بن محمد العسكر

تعامل المعلم مع طلابه

ذكر شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني رَحِمَهُ اللَّهُ كلاماً بديعاً يعتبر وصية لعامة المعلمين والدعاة، فيما يجب عليهم من النصيحة للطلاب، وأن لا ينشؤوهم علىٰ التباغض والشحناء، فقال[١]:

وليس للمعلمين أن يُحزِّبوا الناس، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الأخوة المتعاونين علىٰ البر والتقوى، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المَائدة: ٢].

وليس لأحد منهم أن يأخذ علىٰ أحد عهداً بموافقته علىٰ كل ما يريده، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكيزخان وأمثاله، الذين يجعلون من وافقهم صديقاً موالياً، ومن خالفهم عدواً باغياً، بل عليهم وعلىٰ أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله ورسوله، ويرعوا حقوق المعلمين، كما أمر الله ورسوله، فإن كان أستاذ أحد مظلوماً نصره، وإن كان ظالماً لم يعاونه علىٰ الظلم، بل يمنعه منه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**انصر أخاك ظالماً او**

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/ ١٥).

مظلوماً» قيل يا رسول الله: أنصره مظلوماً فكيف انصره ظالماً؟ قال: «**تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه**»(١).

وإذا وقع بين معلم ومعلم، أو تلميذ وتلميذ، أو معلم وتلميذ، خصومة ومشاجرة؛ لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتىٰ يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوى، بل ينظر في الأمر، فإذا تبين له الحق: أعان المحق منهما علىٰ المبطل، سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره، وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده، وطاعة رسوله، وإتباع الحق والقيام بالقسط، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١٣٥]، يقال: لوى يلوي لسانه فيخبر بالكذب، والإعراض أن يكتم الحق، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

انتهى كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) رواه البخاري في صحيحه في باب في آخر كتاب الإكراه (٦٩٥٢) ولفظه: «**تحجزه، أو تمنعه، من الظلم فإن ذلك نصره**».

التعامل مع المخالف

قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في خاتمة رسالته: **(الحث علىٰ اجتماع كلمة المسلمين وذم التفرق والاختلاف)** كلاماً بديعاً في تعامل العالم والداعية مع من يخالفه، فقال[١]:

ومن أعظم ما يجب الاعتناء به علىٰ أهل العلم: أن لا يجعلوا الاختلاف بينهم في المسائل الدينية ـ التي لا يخرج المخالف فيها إلىٰ البدع أو الشرك ـ سبباً وداعيًا إلىٰ التفرق وتشتيت القلوب، وموجباً للقدح والطعن بسببها، والموالاة والمعاداة عليها، فإن هذا ظلم وتعدٍّ لا يحل بإجماع المسلمين، فما زال السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم يختلفون في مسائل الدين، ولا ينكر بعضهم علىٰ بعض، ولا يوجب بعضهم علىٰ بعض أن يتبعه وإلَّا ضلله، فإن هذه مرتبة لا تصلح إلا للرسل، فهم الذين يُضلَّل مخالفهم، وأما من عداهم فلم تضمن له العصمة.

ومن رحمة الله بعباده أن جعل اختلاف هذه الأمة رحمة، ليثيب المصيب، ويعفو عن المخطئ، واتفاقهم حجة ونجاة

(١) الحث علىٰ الاجتماع كلمة المسلمين وذم التفرق والاختلاف للشيخ عبدالرحمن السعدي (٤١-٤٧).

وعصمة.

فالواجب علىٰ أهل العلم أن يبذلوا جهدهم بتحري الحق والصواب، وأن لا يضللوا المخالف لهم مثلهم، أخطأ أو أصاب.

وهذا في جميع المسائل التي تعارضت فيها أقوال سلف الأمة بحسب ما أداهم إليه اجتهادهم، ثم سرد رَحِمَهُ اللَّهُ أمثلة من اختلاف العلماء في بعض المسائل في الطهارة والصلاة والصيام.

ثم قال: وأمثال هذه المسائل التي لم يزل الخلاف فيها بين السلف وإلىٰ الآن، فلا يحل لمن يرى أحد القولين فيها أن ينكر علىٰ غيره علىٰ وجه القدح به، فإن هذا ظلم لا يجوز، بل وظيفة أهل العلم في مثل هذه المسائل الخلافية أن يبينوا ما يرون أنه الصحيح، بحسب قدرتهم بالدليل الشرعي، الذي هو الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار بالقياس، والحكم بضعف القول الآخر بالدليل الشرعي، وأن يردعوا من جعل هذا الخلاف سلماً للاختلاف، لأنه بعيد عن الإنصاف.

نعم، إن ظهر من أحد من أهل العلم مخالفة بينة لدليل شرعي صريح، فإنه يجب نصحه ويبين له الدليل الشرعي بأقرب الطرق، ولا يجعل تأنيبه أو غيبته في المجالس بدلاً من نصحه، فليست هذه طريقة أهل الإنصاف، بل طريقتهم النصيحة سراً، وعدم إشاعة الفاحشة.

وبالجملة، فالواجب علىٰ أهل العلم وغيرهم: السعي في معرفة الحق، والاجتهاد في تنفيذه والعمل به، والتعاون علىٰ ذلك، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، سواء وافقه أو

خالفه، فكما أنه إذا وقع منه خطأ وزلل لم يحب اطلاع أحد عليه، بل يحرص علىٰ ستر نفسه، فكذلك ينبغي أن ينزل أخاه منه بهذه المنزلة، وأن يحمل ما يصدر منه علىٰ أحسن محمل، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن كان عمله مع إخوانه هكذا، ستر الله عليه بأسباب يعلمها وأسباب لا يعلمها، ستراً لا يحصل لمن لم يكن بهذه المثابة، فكما تدين تدان، جزاء وفاقاً.

فنسأل الله تعالىٰ أن يوفقنا وإخواننا المسلمين لما يحبه ويرضاه، وأن يصلح أحوال المسلمين، ويؤلف بين قلوبهم، ويهديهم سبل السلام، والحمد لله رب العالمين.

طالب العلم والهوى

قال الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي في كتابه (القائد إلىٰ تصحيح العقائد)، ضمن فصل عقده في أمور ينبغي للإنسان أن يقدم التفكر فيها ويجعلها نصب عينيه، وذكر منها تعلق الانسان وطالب العلم والداعية بالهوى، فمما قال[١]:

فكِّر في حالك مع الهوى، افرض أنه بلغك أن رجلاً سبَّ رسول الله ﷺ، وآخر سبَّ داود عليه السلام، وثالثاً سبَّ عمر أو علياً رضي الله عنهما، ورابعاً سبَّ إمامك، وخامساً سبَّ إماماً آخر، أيكون سخطك عليهم وسعيك في عقوبتهم وتأديبهم أو التنديد بهم موافقاً لما يقتضيه الشرع، فيكون غضبك علىٰ الأول والثاني قريباً من السواء، وأشد مما بعدهما جداً، وغضبك علىٰ الثالث دون ذلك، وأشد مما بعده، وغضبك علىٰ الرابع والخامس قريباً من السواء ودون ما قبلهما بكثير؟

إلىٰ أن قال: فتِّش نفسك! تجدك مبتلى بمعصية أو نقص في الدين، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشد مما أنت مبتلى به؟ فهل تجد استشناعك ما هو عليه مساوياً لاستشناعك ما أنت عليه، وتجد مقتك نفسك مساوياً لمقتك إياه؟

(١) القائد إلىٰ تصحيح العقائد لعبدالرحمن المعلمي (٣٠-٣٣).

وبالجملة، فمسالك الهوى أكثر من أن تحصى، وقد جربت نفسي أنني ربما أنظر في القضية زاعماً أنه لا هوى لي، فيلوح لي فيها معنى، فأقرره تقريراً يعجبني، ثم يلوح لي ما يخدش في ذاك المعنى، فأجدني أتبرم بذاك الخادش وتنازعني نفسي إلىٰ تكلف الجواب عنه، وغَضِّ النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا لأني لما قررت ذاك المعنى أولاً تقريراً أعجبني، صرت أهوى صحته، هذا مع أنه لا يعلم بذلك أحد من الناس، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس، ثم لاح لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكن رجلاً آخر أعترض علي به؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه؟

هذا، ولم يكلَّف العالم بأن لا يكون له هوىٰ؟ فإن هذا خارج عن الوسع، وإنما الواجب علىٰ العالم أن يفتش نفسه عن هواها حتىٰ يعرفه، ثم يحترز منه، ويمعن النظر في الحق من حيث هو حق، فإن بان له أنه مخالف لهواه آثر الحق علىٰ هواه، وهذا ـ والله أعلم ـ معنى الحديث الذي ذكره النووي في (الأربعين) وذكر أن سنده صحيح، وهو: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[(١)].

والعالم قد يُقَصِّر في الاحتراس من هواه، ويسامح نفسه، فتميل إلىٰ الباطل فينصره، وهو يتوهم أنه لم يخرج من الحق ولم يعاده، وهذا لا يكاد ينجو منه إلا المعصوم، وإنما يتفاوت

(١) ذكر النووي هذا الحديث ضمن الأربعين النووية وقال: (حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح) والحديث تكلم عنه شراح الأربعين، وضعفوا إسناده، وأوسع من تكلم عنه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩٣- ٣٣٩٥).

العلماء، فمنهم من يكثر الاسترسال مع هواه، ويفحش، حتىٰ يقطع من لا يعرف طباع الناس ومقدار تأثير الهوى بأنه متعمد، ومنهم من يقلُّ ذلك منه ويخف، ومن تتبع كتب المؤلفين الذين لم يسندوا اجتهادهم إلىٰ الكتاب والسنة رأساً؛ رأى فيها العجب العجاب، ولكنه لا يتبين له إلا في المواضع التي لا يكون له فيها هوى، أو يكون هواه مخالفاً لما في تلك الكتب، علىٰ أنه إذا استرسل مع هواه زعم أن موافقيه بُرَاء من الهوى، وأن مخالفيه كلهم متبعون للهوى، وقد كان من السلف من يبالغ في الاحتراس من هواه حتىٰ يقع في الخطأ الآخر، كالقاضي يختصم إليه أخوه وعدوه، فيبالغ في الاحتراس حتىٰ يظلم أخاه، وهذا كالذي يمشي في الطريق ويكون عن يمينه مزلة فيتَّقيها، ويتباعد عنها، فيقع في مزلة عن يساره!

العالم الذي يؤخذ عنه

ذكر الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه العظيم **(الموافقات)** وصفاً للعالم الذي ينبغي أخذ العلم عنه، وما يشترط فيه من صفات، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]:

وللعالم المتحقق بالعلم أمارات وعلامات، وهي ثلاث:

إحداها: العمل بما علم، حتىٰ يكون قوله مطابقاً لفعله، فإن كان مخالفاً له، فليس بأهل لأن يؤخذ عنه، ولا أن يقتدى به في علم.

والثانية: أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم، وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السلف الصالح.

فأول ذلك ملازمة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخذهم بأقواله وأفعاله، واعتمادهم علىٰ ما يرد منه كائناً ما كان، وعلىٰ أي وجه صدر، فهم فهموا مغزى ما أراد به أولاً حتىٰ علموا، وتيقنوا أنه الحق الذي لا يعارض، والحكمة التي لا ينكسر قانونها، ولا يحوم النقص حول حمى كمالها، وإنما ذلك بكثرة الملازمة، وشدة المثابرة.

وصار مثل ذلك أصلاً لمن بعدهم، فالتزم التابعون في

(١) الموافقات للشاطبي (١/ ١٤١-١٥٤).

الصحابة سيرتهم مع النبي ﷺ، حتىٰ فقهوا، ونالوا ذروة الكمال في العلوم الشرعية، وحسبك من صحة هذه القاعدة: أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه، إلا وله قدوة واشتهر في قرنه بمثل ذلك، وقلَّما وجدت فرقة زائغة، ولا أحد مخالف للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف.

والثالثة: الاقتداء بمن أخذ عنه، والتأدب بأدبه، كما علمت من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ، واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرن، وبهذا الوصف امتاز مالك عن أضرابه، أعني بشدة الاتصاف به، وإلَّا فالجميع ممن يهتدى به في الدين، كذلك كانوا، ولكن مالكاً اشتهر بالمبالغة في هذا المعنى، فلما تُرِك هذا الوصف؛ رفعت البدع رؤوسها، لأن ترك الاقتداء دليل علىٰ أمر حدث عند التارك، أصله اتباع الهوى.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وإذا ثبت أنه لا بد من أخذ العلم عن أهله، فلذلك طريقان:

أحدهما: المشافهة، وهي أنفع الطريقين وأسلمهما؛ لوجهين:

الأول: خاصية جعلها الله تعالىٰ بين المعلم والمتعلم، يشهدها كل من زاول العلم والعلماء، فكم من مسألة يقرأها المتعلم في كتاب، ويحفظها، ويرددها علىٰ قلبه فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهمها بغتة، وحصل له العلم بها بالحضرة، وهذا الفهم يحصل إما بأمر عادي من قرائن أحوال، وإيضاح موضع إشكال لم يخطر للمتعلم ببال، وقد يحصل بأمر غير معتاد، ولكن بأمر يهبه الله لمتعلم عند مثوله بين يدي

المعلم، ظاهر الفقر، بادي الحاجة إلىٰ ما يلقى إليه.

وهذا ليس ينكر؛ فقد نبه عليه الحديث الذي جاء: إن الصحابة أنكروا أنفسهم عندما مات رسول الله ﷺ[(١)]، وحديث حنظلة الأسيدي حين شكا إلىٰ رسول الله ﷺ أنهم إذا كانوا عنده وفي مجلسه كانوا علىٰ حالة يرضونها، فإذا فارقوا مجلسه زال ذلك عنهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم تكونون كما تكونون عندي، لأظلتكم الملائكة بأجنحتها**»[(٢)].

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وافقت ربي في ثلاث»[(٣)]، وهي من فوائد مجالسة العلماء، إذ يُفتح للمتعلم بين أيديهم ما لا يفتح له دونهم، ويبقى ذلك النور لهم بمقدار ما بقوا في متابعة معلمهم، وتأدبهم معه، واقتدائهم به، فهذا الطريق نافع علىٰ كل تقدير.

وقد كان المتقدمون لا يَكتب منهم إلا القليل، وكانوا يكرهون ذلك، وقد كرهه مالك، فقيل له: فما نصنع؟ قال: تحفظون وتفهمون، حتىٰ تستنير قلوبكم، ثم لا تحتاجون إلىٰ الكتابة، وحكي عن عمر بن الخطاب كراهية الكتابة، وإنما ترخص الناس في ذلك عندما حدث النسيان، وخيف علىٰ

---

(١) ورد في ذلك عدة آثار عن الصحابة بهذا المعنى، منها ما رواه ابن الأعرابي في معجمه بسنده (٤١٩) عن أبي سعيد قال: (لما قبض رسول الله ﷺ أنكرنا أنفسنا وكيف لا ننكر أنفسنا والله يقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحُجرَات: ٧] ورواه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (٢٣٨٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، (٢٧٥٠).

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة، (٤٠٢).

الشريعة الاندراس.

الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين، ومدوني الدواوين، وهو أيضاً نافع في بابه، بشرطين:

الأول: أن يحصل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفة اصطلاحات أهله، ما يتم له به النظر في الكتب، وذلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء أو مما هو راجع إليه، وهو معنى قول من قال: "كان العلم في صدور الرجال، ثم انتقل إلىٰ الكتب، ومفاتحه بأيدي الرجال"[(١)]، والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئاً دون فتح العلماء، وهو مشاهد معتاد.

والشرط الآخر: أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد، فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين، وأصل ذلك التجربة، والخبر.

أما التجربة: فهو أمر مشاهد في أيِّ علم كان، فالمتأخر لا يبلغ من الرسوخ في علم ما يبلغه المتقدم، وحسبك من ذلك أهل كل علم عملي أو نظري، فأعمال المتقدمين في إصلاح دنياهم ودينهم علىٰ خلاف أعمال المتأخرين، وعلومهم في

(١) وجدت هذه المقولة لابن رشد الجد في كتابه المقدمات الممهدات (١/ ٤٩) بلفظ: (وكان العلم في الصدر الأول والثاني في صدور الرجال، ثم انتقل إلىٰ جلود الضأن وصارت مفاتحه في صدور الرجال، فلا بد لطالب العلم من معلم يفتح عليه ويطرق له) وذكره أيضاً في البيان والتحصيل (١٨/ ٢٥٠) بلفظ: (وكان العلم في الصدر الأول وفي الثاني في صدور الرجال، ثم انتقل بعد ذلك إلىٰ جلود الضأن وصارت مفاتيحه في صدور الرجال، فلا معنى لرواية الأحاديث إلا التفقه فيها، ولا بد لمريد التفقه فيها من مطرق يفتح عليه معانيها، وبالله التوفيق).

التحقيق أقعد، فتحقُّقُ الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقق التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلىٰ الآن، ومن طالع سيرهم، وأقوالهم، وحكاياتهم أبصر العجب في هذا المعنى.

وأما الخبر ففي الحديث: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(١)]، وفي هذا إشارة إلىٰ أن كل قرن مع ما بعده كذلك، فلذلك صارت كتب المتقدمين وكلامهم وسيرهم أنفع لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم، علىٰ أيِّ نوع كان، وخصوصاً علم الشريعة الذي هو العروة الوثقى، والوزر الأحمى، وبالله تعالىٰ التوفيق.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٤٢٩).

فضل العلم وحضور مجالسه

حضور مجالس العلم لها آداب وفوائد ذكر بعضها ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه **(الأخلاق والسير في مداواة النفوس)**، فقال[١]:

لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك، وأن العلماء يحبونك ويكرمونك، لكان ذلك سبباً إلىٰ وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة؟

ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء، ويغبط نظراءه من الجهال، لكان ذلك سبباً إلىٰ وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة؟

لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داع إليه، فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره، ومن أقلِّها ما ذكرنا مما يحصل عليه طالب العلم.

ثم عقد فصلاً في آخر الكتاب في حضور مجالس العلم، وآدابها، فقال[٢]:

إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس للإمام ابن حزم (٢١).
(٢) الأخلاق والسير في مداواة النفوس للإمام ابن حزم (٩١-٩٣).

مستزيد علماً وأجراً، لا حضور مستغن بما عندك، طالباً عثرة تشيعها، أو غريبة تشنعها، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في العلم أبداً.

فإذا حضرتها علىٰ هذه النية، فقد حصلت خيراً علىٰ كل حال، وإن لم تحضرها علىٰ هذه النية؛ فجلوسك في منزلك أروح لبدنك، وأكرم لخلقك، وأسلم لدينك.

فإذا حضرتها كما ذكرنا؛ فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها، وهي:

إما أن تسكت سكوت الجهال، فتحصل علىٰ أجر النية في المشاهدة، وعلىٰ الثناء عليك بقلة الفضول، وعلىٰ كرم المجالسة، ومودة من تجالس.

فإن لم تفعل ذلك؛ فاسأل سؤال المتعلم، فتحصل علىٰ هذه الأربع محاسن، وعلىٰ خامسة؛ وهي استزادة العلم.

وصفة سؤال المتعلم: أن تسأل عما لا تدري، لا عما تدري، فإن السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل، وشغل لكلامك، وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه، لا لك ولا لغيرك، وربما أدى إلىٰ اكتساب العداوات، وهو بعدُ عين الفضول.

فيجب عليك أن لا تكون فضوليًّا، فإنها صفة سوء، فإن أجابك الذي سألتَ بما فيه كفاية لك، فاقطع الكلام، وإن لم يجبك بما فيه كفاية، أو أجابك بما لم تفهم، فقل له: لم أفهم، واستزده، فإن لم يزدك بياناً، وسكت، أو أعاد عليك الكلام الأول، ولا مزيد، فأمسك عنه، وإلا حصلت علىٰ الشر والعداوة، ولم تحصل علىٰ ما تريد من الزيادة.

والوجه الثالث: أن تراجع مراجعة العالم، وصفة ذلك: أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضاً بيناً، فإن لم يكن ذلك عندك، ولم يكن عندك إلا تكرار قولك، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة، فأمسك، فإنك لا تحصل بتكرار ذلك علىٰ أجر، ولا علىٰ تعليم، ولا علىٰ تعلم، بل علىٰ الغيظ لك ولخصمك، والعداوة التي ربما أدت إلىٰ المضرات.

وإياك وسؤال المعنِّت، ومراجعة المكابر، الذي يطلب الغلبة بغير علم، فهما خلقا سوء، دليلان علىٰ قلة الدين وكثرة الفضول، وضعف العقل وقوة السخف، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ما يقدم في الحفظ

ألَّف ابن الجوزي رسالة لطيفة ينصح فيها ولده بالعلم وملازمة العلماء، وقد سمَّى كتابه **(الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ)** وتناقل العلماء هذه الرسالة اللطيفة لما فيها من نصح وتوجيه لطالب العلم، وما فيها من شفقة المعلم ونصحه لطالبه، ومما قاله ابن الجوزي فيها، أنه عقد باباً في الإعلام بما ينبغي تقديمه من المحفوظات، فقال[١]:

أول ما ينبغي تقديمه: مقدمة في الاعتقاد تشتمل علىٰ الدليل علىٰ معرفة الله سبحانه، ويذكر فيها ما لا بد منه، ثم يعرف الواجبات، ثم حفظ القرآن، ثم سماع الحديث.

ولا بد من حفظ مقدمة في النحو يقوَّم بها اللسان، والفقه عمدة العلوم، وجمع العلوم ممدوح، إلا أن أقواماً أذهبوا الأعمار في حفظ النحو واللغة، وإنما يعرف بها غريب القرآن والحديث، وما يفضل عن ذلك ليس بمذموم، غير أن غيره أهم منه.

وإن أقواماً أذهبوا أزمانهم في علوم القرآن، فاشتغلوا بما غيره أصلح منه من الشواذ المهجورة، والعمر أنفس من تضييعه في هذا.

---

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ لابن الجوزي (٤٧-٤٩).

وإن أقواماً أذهبوا أعمارهم في طرق الحديث، ولعمري إن ذلك حسن؛ إلا أن تقديم غير ذلك أهم.

فنرى أكثر هؤلاء المذكورين لا يعرفون الفقه الذي هو ألزم من ذلك، ومتى أمعن طالب الحديث في السماع والكتابة ذهب زمان الحفظ، وإذا عَلَت السن لم يقدر علىٰ الحفظ المهم، وإذا أردت أن تعرف شرف الفقه؛ فانظر إلىٰ مرتبة الأصمعي في اللغة، وسيبويه في النحو، وابن معين في معرفة الرجال، كم بين ذلك ومرتبة أحمد والشافعي في الفقه.

ثم لو حضر شيخ مُسِنٌّ له إسناد لا يعرف شيئاً من الفقه، بين يديه شاب متفقه فجاءت مسألة: سكت الشيخ، وتكلم الشاب، وهذا يكفي في فضل الفقه.

ولقد تشاغل خلق كثير من أصحاب الحديث بعلوم الحديث، وأعرضوا عن الفقه، فلما سئلوا عن مسألة في الأحكام افتضحوا.

ثم ذكر نوادر من قصص بعض المتقدمين الذين قدموا علماً علىٰ علم، فوقعوا في الخطأ في الفتوى، والحرج أمام طلابهم.

ثم قال: ولو اتسع العمر لأمرتك ـ يقصد ابنه ـ باستقصاء كل علم، إذ الكل ممدوح، فلما قصر العمر وجب تقديم المهم والأفضل. انتهى.

والرسالة مليئة بالنصح والتوجيه والإرشاد، جدير بطالب العلم المبتدئ أن يطلع عليها، ويستمع إلىٰ نصائح أحد علماء الإسلام وأعيانه، رحم الله علماء السلف كم نصحوا وكم بينوا، ورزقنا السير علىٰ طريقهم.

العلم الذي يورث الخشية

قال الشيخ العلامة عبدالرحمن بن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (فضل علم السلف علىٰ الخلف)، في بيان العلم النافع الذي يزيد طالبه خشية لله تعالىٰ، وأنه هو الطريق إلىٰ تحصيل الفائدة من العلم، وهو الطريق للقرب من الله تعالىٰ، ولذلك كان أول أمر يرفع، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]:

فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم، في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد علىٰ تمييز صحيحه من سقيمه أولاً، ثم الاجتهاد علىٰ الوقوف في معانيه وتفهمه ثانياً، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل.

ومن وقف علىٰ هذا، وأخلص القصد فيه لوجه الله عَزَّ وَجَلَّ، واستعان عليه، أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه، وحينئذ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به، وهي خشية الله، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨]، قال ابن مسعود وغيره: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله

(١) فضل علم السلف علىٰ الخلف لابن رجب الحنبلي (٦-٨).

جهلاً، وقال بعض السلف: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية.

وقال بعضهم: من خشي الله فهو عالم، ومن عصاه فهو جاهل، وكلامهم في هذا المعنى كثير جداً.

وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل علىٰ أمرين:

أحدها: علىٰ معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلىٰ والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته، ومهابته ومحبته ورجاءه، والتوكل عليه والرضى بقضائه، والصبر علىٰ بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويسخطه، من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلىٰ ما فيه محبة الله ورضاه، والتباعد عما يكرهه ويسخطه: فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا؛ فهو علم نافع، فمتى كان العلم نافعاً، ووقر في القلب، فقد خشع القلب لله وانكسر له، وذلَّ هيبة وإجلالاً وخشية ومحبة وتعظيماً.

ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له؛ قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا، وشبعت به، فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا، وكلِّ ما هو فانٍ لا يبقى من المال والجاه وفضول العيش، الذي ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعيم الآخرة، وإن كان كريماً علىٰ الله، كما قال ذلك ابن عمر وغيره من السلف، وروي مرفوعاً.

وأوجب ذلك أن يكون بين العبد وبين ربه ﷻ معرفة خاصة، فإن سأله أعطاه، وإن دعاه أجابه، كما قال في الحديث

الإلهي: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه،.... إلىٰ** قوله: **فلئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**» وفي رواية: «**ولئن دعاني لأجيبنه**»[(١)] وفي وصيته ﷺ لابن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلىٰ الله في الرخاء؛ يعرفك في الشدة**»[(٢)].

إلىٰ أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فالعلم النافع ما عرف بين العبد وربه، ودل عليه حتىٰ عرف ربه، ووحَّده، وأنس به، واستحى من قربه، وعبده كأنه يراه.

ولهذا قالت طائفة من الصحابة: إن أول علم يرفع من الناس الخشوع، وقال ابن مسعود: إن أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب؛ فرسخ فيه، نفع.

وقال الحسن: العلم علمان، فعلم علىٰ اللسان، فذلك حجة الله علىٰ ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع.

وكان السلف يقولون: إن العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمره، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، وأكملهم الأول، وهو الذي يخشى الله ويعرف أحكامه.

ثم ختم ذلك بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن فاته هذا العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ، وصار علمه وبالاً وحجة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب التواضع (٦٥٠٢)، والرواية المذكورة هي رواية البزار في مسنده (٨٧٥٠).

(٢) رواه بهذا اللفظ الإمام أحمد في المسند (٢٨٠٣) كما رواه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٤)، وإسناده صحيح، وانظر السلسة الصحيحة للألباني (٥/٤٩٦).

عليه، فلم ينتفع به، لأنه لم يخشع قلبه لربه، ولم تشبع نفسه من الدنيا، بل ازداد عليها حرصاً ولها طلباً، ولم يسمع دعاؤه لعدم امتثاله لأوامر ربه، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه. انتهى المقصود من كلام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ.

أعاذنا الله جميعاً من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعين لا تدمع، ودعاء لا يسمع.

مسؤولية طالب العلم والداعية قبل نشر علمه ودعوته

وجه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ نصيحة لطلبة العلم بعنوان (مسؤولية طالب العلم)[١]، حدد فيها مسؤوليتهم جهة أنفسهم قبل أن ينشروا علمهم ودعوتهم، وهي وصية نافعة جامعة ومما ذكره فيها مما يتعلق بمسؤولية طالب العلم والداعية تجاه نفسه قبل أن يبدأ الدعوة والتعليم قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ومسئولية طالب العلم مسئولية كبيرة، وهي متفاوتة علىٰ حسب ما عنده من العلم، وعلىٰ حسب حاجة الناس إليه، وعلىٰ حسب قدرته وطاقته.

فهناك مسئولية من جهة نفسه: من جهة إعداد هذه النفس للتعليم والدعوة، وأداء الواجب، ومن جهة العناية بالعلم والتفقه في الدين، ومراجعة الأدلة الشرعية، والعناية بها، فإن طالب العلم بحاجة شديدة إلىٰ أن يكون لديه رصيد عظيم من الأدلة الشرعية، والمعرفة بكلام أهل العلم وخلافهم، ومعرفة بالراجح في مسائل الخلاف، بالدليل من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بدون تقليد لزيد وعمرو، فالتقليد كلٌّ يستطيعه، وليس من العلم في شيء.

(١) انظر الرسالة كاملة في مجموع فتاوى الشيخ عبدالعزيز ابن باز ورسائله (٧/ ٢١٣-٢٢٦).

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر الإمام المشهور صاحب التمهيد وغيره: (أجمع العلماء علىٰ أن المقلد لا يعد من العلماء).

فطالب العلم عليه مسئولية كبيرة ومفترضة، وهي أن يُعنى بالدليل، وأن يجتهد في معرفة براهين المسائل، وبراهين الأحكام من الكتاب العزيز والسنة المطهرة، ومن القواعد المعتبرة، وأن يكون علىٰ بينة كبيرة، وعلىٰ صلة وثيقة بكلام العلماء، فإن معرفته بكلام أهل العلم تعينه علىٰ فهم الأدلة، وتعينه علىٰ استخراج الأحكام، وتعينه علىٰ التمييز بين الراجح والمرجوح.

ثم عليه مسئولية أخرى من جهة الإخلاص لله سبحانه، ومراقبته، وأن يكون هدفه إرضاءه ﷻ، وأداء الواجب وبراءة الذمة، ونفع الناس، فلا يهدف إلىٰ مال وعَرَض عاجل، فذلك شأن المنافقين وأشباههم من أهل الدنيا، ولا يهدف للرياء والسمعة، ولكن هدفه أن ينفع عباد الله، وأن يرضي ربه قبل ذلك، وأن يكون علىٰ بينة فيما يقول، وفيما يفتي به، وفيما يعمل به، ولا يجوز له التساهل، لأن طالب العلم متَّبع متأسىً بتصرفاته وأعماله، فإن كان مدرساً تأسى به الطلبة، وإن كان مفتياً أخذ الناس فتواه، وإن كان داعية كذلك خطره عظيم، وإن كان قاضياً فالأمر أعظم.

فالواجب علىٰ طالب العلم أن يكون له موقف مع ربه، موقف يرضاه مولاه، موقف يشتمل علىٰ الإخلاص لله، والصدق في طلب رضاه، والحرص الذي لا حدود له، في معرفة الأدلة الشرعية، والتفتيش عنها حتىٰ يقف علىٰ الدليل، وبذلك تنفسح

أمامه الدنيا، ويفتي علىٰ بصيرة، ويدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة، ويعلّم الناس علىٰ بصيرة، ويأمر بالمعروف علىٰ بصيرة، وينهى عن المنكر علىٰ بصيرة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يُوسُف: ١٠٨]، وقد فسّرت البصيرة بالعلم.

أما من ليس له بصيرة، فلا يعد من أهل العلم، ولا ينفع الناس، لا في دعوة ولا في غيرها من جهة أمور الدين، أعني النفع الحقيقي المثمر، وإن كان قد ينفع بعض الناس بنصيحة يعرفها، أو مسألة يحفظها، أو مساعدة ماديّة يقدمها، ولكن النفع الحقيقي من طالب العلم، يترتب علىٰ صدقه وإخلاصه، وعلىٰ كثرة علمه، وتمكّن فقهه، وعلىٰ صبره ومصابرته.

وهناك مسألة مهمة، وهي المسئولية الملقاة علىٰ طالب العلم من جهة البلاغ والتعليم للناس، فإن العلماء هم خلفاء الرسل، وهم ورثتهم، ولا يخفى مرتبة الرسل، وأنهم هم القادة، وهم الهداة للأمة، وهم أسباب سعادتها ونجاتها، فالعلماء حلوا محلهم، ونزلوا منزلتهم في البلاغ والتعليم؛ لأنهم ختموا بمحمد عليه الصلاة والسلام، فلم يبق إلا البيان والتبليغ لشريعة محمد ﷺ، والدعوة إليها وبيانها ونشرها بين الناس، وليس لذلك أهل إلا أهل العلم، هم الذين أهّلهم الله لهذا الأمر، دعاة وقادة، بأقوالهم وأفعالهم وسيرتهم الظاهرة والباطنة، فواجبهم عظيم، والخطر عليهم عظيم، والأمة في ذمتهم؛ لأنها بأشد الحاجة إلىٰ البلاغ والبيان بالطرق الممكنة.

والطرق اليوم كثيرة: منها وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، فلها آثارها العظيمة في إضلال الناس،

وفي هدايتهم.

وهكذا الخطب في الجمع والأعياد والمناسبات والندوات، والاحتفالات لأي سبب، لها أثرها أيضاً، والنشرات المستقلة والمؤلفات والرسائل لها أثرها العظيم.

فالطرق بحمد الله اليوم ميسرة وكثيرة، وإنما المصيبة ضعف الطالب، وقلة نشاطه، وإعراضه وغفلته، هذه هي المصيبة العظمى، فالله يقول ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٣]، فليس في الوجود من هو أحسن قولاً من هؤلاء، وعلىٰ رأسهم الرسل الكرام والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ثم يليهم أهل العلم.

فكلما كثر العلم، وكملت التقوى والخوف من الله ﷻ، والإخلاص له سبحانه، صار النفع أكثر، وصار التبليغ عن الله وعن رسوله أكمل.

وكلما ضعفت التقوى، أو قلَّ العلم، أو قلَّ الخوف من الله، أو بُلي العبد بمشاغل الدنيا والشهوات العاجلة: قلَّ هذا العلم، وقلَّ هذا الخير.

إلىٰ آخر كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

التواصل بين العلماء والدعاة

قال الشيخ عبدالرحمن بن يحيىٰ المُعلِّمي في رسالة لطيفة له بعنوان: **(صفة الارتباط بين العلماء في القديم)**[١]، متحدثاً عن أهمية التواصل بين العلماء وطلبة العلم، وأثر ذلك في الوصول إلىٰ الحق، وإزالة الوحشة بين الدعاة، وفهم المقصود مباشرة دون وسائط، أو حكم علىٰ الشخص في غيابه، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

كان العلماء في العصور الأولى متواصلين علىٰ بُعْد الأقطار وصعوبة الأسفار، فلا تكاد تطّلع علىٰ ترجمة رجل منهم، إلا وجدت فيها ذِكْرَ ارتحاله في أوان الطلب إلىٰ الأقطار النائية، للقاء العلماء والأخذ عنهم، وسياحته بعد التحصيل، وكلما دخل بلدةً سأل عمن بها من العلماء، واجتمع بهم، واستفاد منهم وأفادهم، وبقي يواصلهم طول عمره بالمكاتبة والمراسلة، وكانت المكاتبات لا تنقطع بين علماء الأقطار لتبادل الأفكار في المسائل العلمية.

وكثير من المؤلفات العلمية كان سببها المكاتبة بين العلماء، كما في رسالة الليث بن سعد إلىٰ مالك التي تشتمل علىٰ عدة مسائل، وفيها ما يدل أنّ المكاتبة بينهما في المسائل العلمية كانت متواصلة.

---

(١) انظر الرسالة كاملة في مجموعة آثار عبدالرحمن المعلمي (١٥/ ٤١٥-٤٢٦).

وقال أبو ثور: كتب عبد الرحمن بن مهدي إلىٰ الشافعي وهو شاب أن يضع له كتابًا، فوضع له كتاب الرسالة.

وكثير من الفتاوى المطولة صادر عن ذلك كما يعلم بمراجعتها كـ"فتاوى السبكي الكبير" وغيره.

كما أنّ كثيرًا من التواريخ استفاد مؤلفوها كثيرًا مما فيها، أو أكثره، بمكاتبة العلماء، كـ"تاريخ ابن خلكان" و"إنباء الغُمر" و"الدرر الكامنة" لابن حجر العسقلاني، و"الضوء اللامع" للسخاوي، وغير ذلك مما تقدم أو تأخر.

وقد كان هذا العمل ـ أعني المكاتبة بين العلماء في المسائل العلمية ـ جاريًا في اليمن إلىٰ مدّة غير بعيدة، وقد رأيتُ في المخطوطات اليمنية كثيرًا من ذلك.

فأصبح العلماء في هذا العصر متقاطعين، لا صِلَة بين علماء هذا القُطْر وعلماء القطر الآخر، بل ولا بين علماء القطر الواحد! بل ولا علماء البلد الواحد!!

فقد كان علماء البلد الواحد في العصور السابقة لا يكاد يمرُّ عليهم يوم، إلا وهم يجتمعون فيه ويتذاكرون.

أمّا الآن فقد تمر علىٰ العالم شهور، بل سنون، لا يجتمع بعالم آخر، قد يكون معدودًا من جيرانه! وإذا جمعتهما الجماعة أو الجمعة أو العيد فقد يرجعان عن المصلى ولم يلتقيا! وإذا التقيا تجنَّب كلٌّ منهما فتح باب المذاكرة، إمّا رغبة عن العلم، وإمّا استحقارًا لصاحبه، وإمّا أَنَفَة أن يظنَّ الناس أنّ صاحبه أعلم منه، وإمّا خوفًا من أن تجرَّ المذاكرةُ إلىٰ المنازعة أو غير ذلك!!

وهكذا يحجُّ كل سنة جماعةٌ من العلماء، ويرجع كل منهم ولم يجتمع بأحد من علماء الحرمين، أو العلماء الذين حجوا في ذلك العام.

وقد كان العلماء في العصور السابقة علىٰ خلاف هذه الحال، فكان من أعظم ما يهتمُّ به العالم إذا حجّ: الاجتماع بالعلماء والاستفادة منهم وإفادتهم.

ولقد كان بعض العلماء يحجّ، وأعظم البواعث له علىٰ الحج: الاجتماع بالعلماء، مع أنّ هذه العبادات ـ أعني الجماعة والجمعة والعيد والحج ـ مِن أعظم الحِكَم في شَرْعِها: الاجتماع والتعارف، وتبادل الفوائد العلمية وغيرها.

وهكذا قد يتفق لأحد علماء هذا العصر سفر إلىٰ بلد من البلدان فيَرِدُه، ويمكث فيه مدّةً لا يسأل عمن به من العلماء، ولا يجتمع بهم، وإذا اجتمع بهم تجنَّب المذاكرة العلمية، فلا يكاد يفيد ولا يستفيد، وإذا كان يصنع هذا مع جيرانه من العلماء، فكيف يُرْجَى منه خلافُه مع علماء البلدان البعيدة عنه؟!

وكم من عالم تُشْكِل عليه مسألة، أو يخشى أن يكون مخطئًا فيها، فلا يدعوه التوفيق إلىٰ الاجتماع بغيره من العلماء والبحث معهم فيها، أو إلىٰ مكاتبتهم في ذلك.

هذا مع تيسر طرق المواصلات في هذه الأعصار، فأصبحت المسافة التي كانت لا تُقْطَع إلا في أشهر أو سنين، مع المشاق والمخاوف والعوائق والقواطع، تُقْطَع الآن في أيام، مع الأمن والراحة، وكذلك حال المكاتبات.

ولقد كان العالم يبيع ضنائنه لكي يتزوَّد لسفر بعيد، ليجتمع

بعالم آخر، وكثيرًا ما كانت تعرض لهم المشاق الشديدة في البر والبحر، ويُعرّضون أنفسهم للمهالك، كلُّ ذلك رغبةً في العلم.

حتىٰ لقد كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يسافر من المدينة إلىٰ مصر ليجتمع بصحابي آخر هنالك، ليستثبته في حديث واحد سمعاه معًا من النبي ﷺ!!

هكذا كان القوم، فأصبح أحدنا يتثاقل عن بضع خطوات يمشيها إلىٰ عالم، أو يضِنّ ببضعة أَفْلُس يبتاع بها طوابع للبريد ليكتب بها إلىٰ عالم.

وكم من عالم أخطأ في مسألة، فلم يهتم إخوانه من العلماء، بأن يزوروه ويذاكروه فيها، أو يكاتبوه في شأنها، بل غاية ما يصنع أحدهم أن ينشر اعتراضه في مجلة أو رسالة يُشنِّع علىٰ ذلك العالم ويُجَهّله، أو يبدّعه ويكفّره، فتكون النتيجة عكس المطلوب.

وكم من مسائل يُفْتَى فيها بمصر بشيء، وبالشام بخلافه، وفي الهند بخلاف ذلك، ولو كانت المواصلات جارية بين العلماء لما وقع هذا الخبط الشديد الذي يوسع خَرْقَ الافتراق، ويؤول إلىٰ النزاع والشقاق.

وعلماء الدين أحوج الناس إلىٰ التواصل والتعاون، خصوصًا في العصر الذي تفشّى فيه وباء الإلحاد، وقلَّت الرغبة في العلوم الدينية، بل كادت تعم النُّفْرة عنها، واستغنى كلّ أحد برأيه.

فعلماء الدين مفتقرون إلىٰ التعاون لإيجاد طرقٍ تقرَّب المسافة بينهم وبين المتعلّمين العلومَ الحديثة، وتُجْلى فيها

المسائل الدينية في معارض تتفق وطريقَ التفكير العصري، فيُسْتطاع بذلك إيقاف الوباء عن زيادة الانتشار ومعالجة المرضىٰ، بل والدعاية المثمرة إن شاء الله.

فأمّا الدواء المعروف الآن، وهو التكفير والتضليل، فإنه لا يزيد الداء إلا إعضالاً، ومَثله مَثلُ رجل ظهر ببعض أصابعه برص فقطعه! فظهر البرص بأخرى فقطعها!! فقيل له: حنانيك قبل أن تقطع جميع أعضائك!

وهذا موضوع واسع، أكتفي بالإلماع إليه.

إلىٰ آخر كلام المعلِّمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

تخول الناس بالموعظة خشية مللهم

عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً فقال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

ثم قال: حدثنا محمد بن يوسف قال: أخبرنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»[(١)].

قال الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن جبرين رَحِمَهُ اللَّهُ شارحاً لهذا الحديث[(٢)]، مبيناً وقت الموعظة للداعي إلىٰ الله تعالىٰ:

في هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يتخولهم بالموعظة، كراهة السآمة عليهم.

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قلوبهم رقيقة يتأثرون بالموعظة، ويكون لها وقع في نفوسهم، فإذا كانوا عنده بالمجلس وذكَّرهم وعرَّفهم رقَّت منهم القلوب، ودمعت منهم الأعين، وخشعت منهم الأبصار، واقشعرت منهم الجلود، وخشعوا واستكانوا، وأثَّرت الموعظة فيهم؛ فيكون من آثارها أنهم قد ينقطعون بالعبادة، وقد يتخلون من شهوات الدنيا، ومن ملذاتها، من آثار تلك الموعظة.

(١) انظر صحيح البخاري كتاب العلم الحديث قم (٦٨).
(٢) وذلك ضمن شرحه لكتاب العلم من صحيح البخاري، وهي دروس مفرغة، موجودة علىٰ موقع فضيلته علىٰ شبكة المعلومات.

فكان ﷺ لا يواصل الموعظة والتذكير ونحوه مخافة السآمة عليهم، ومخافة أن يتأثروا تأثيراً بغيضاً؛ فلذلك كان يعظهم كل أسبوع مرة أو مرتين، هكذا.

والمراد بالموعظة هاهنا التذكير والتخويف؛ بحيث يذكِّرهم بالآخرة، ويذكِّرهم بمعادها، وما فيها من الوعيد ومن الثواب والعقاب، ومن الأقوال ومن النكال، ومن عاقبة الدنيا ومآلها وتقلبها بأهلها، ومن أحوال المكذبين ممن سبق، وما نزل بهم من المثلات، وما حل بهم من العقوبات، من آثار المعاصي والسيئات.

فلذلك إذا ذكَّرهم فإنهم يخشعون، ويخضعون، ويسكنون، ويتأثرون بالموعظة تأثراً بليغاً؛ فكان يخشى عليهم من الانقطاع الكلي، وترك ما كان مباحاً لهم، وقد وقع منهم قصص؛ فمن ذلك قصة حنظلة؛ أنه جاء إلىٰ أبي بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة، قال: ماذا تقول؟ فقال: إنا نكون عند رسول الله ﷺ، فيذكِّرنا الآخرةَ كأنَّا رأي العين، فإذا رجعنا إلىٰ أهلينا عافسنا النساء والأولاد؛ فنسينا كثيراً مما كنا نعلمه، فقال أبو بكر: والله إنَّا لكذلك.

فعند ذلك جاء حنظلة إلىٰ النبي ﷺ وقال له هذه المقالة، فقال النبي ﷺ: «**لو تدومون على ما كنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم؛ ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**»[1].

يعني لا تدومون علىٰ الحالة التي كنتم عندي فيها؛ من حالة الخشوع والخضوع ولكن ساعة وساعة؛ يعني زاولوا

(١) سبق تخريجه.

شهواتكم، وزاولوا أمور مكاسبكم وصناعتكم وحظوظكم وأشغالكم وزاولوا دنياكم، وكذلك اجلسوا مع أولادكم ومع نسائكم، وتناولوا ما أحل الله لكم، وإذا كنتم عندنا فإنكم تخشعون وتخضعون وتتواضعون، ولا يؤثر ذلك في خشوعكم، ولا يكون ذلك علامة علىٰ أنكم منافقون؛ وهم منزهون عن ذلك، وكذلك تأثر بموعظة النبي ﷺ كثير.

وكان أيضاً أصحاب ابن مسعود مثل الصحابة في رقة القلوب؛ فكان يعظهم كل يوم خميس، فقالوا له: لو وعظتنا كل يوم: فأخبرهم بحالة النبي ﷺ أنه كان يتخولهم بالموعظة، كل أسبوع، مخافة السآمة عليهم، أي مخافة المشقة التي تؤدي بهم إلىٰ ترك الشهوات وما أشبهها.

أما في هذه الأزمنة فالقلوب قاسية؛ وذلك لكثرة المغريات، ولكثرة الشهوات، فلو أنه ذُكِّروا كل يوم مرة، مرتين، ثلاث مرات، ما خشعوا، ولا خضعوا، ولا بلغوا رتبة الصحابة رضي الله عنهم، لما في الصحابة من رقة القلوب، ومن الخوف والخشية الشديدة؛ فنقول: لا مانع من أن يوعظ الناس كل يوم، أو كل يوم مراراً؛ سواء في المجالس، أو بعد الصلوات في المساجد، أو في الخطب، أو ما أشبه ذلك، فإن القلوب تحتاج إلىٰ ما يلينها؛ بخلاف ما كان عليه الصحابة، وما كان عليه النبي ﷺ.

انتهى كلام الشيخ عبدالله بن جبرين رحمه الله.

التعالم في الفتوى

عقد الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ عنواناً في كتابه **(التعالم وأثره علىٰ الفكر والكتاب)** فقال: (ظواهر التعالم)[١]، وذكر فيه خمسة عشر مظهراً من مظاهر التعالم، ابتدأها بمظهر التعالم في الفتيا، فقال رحمه الله تعالىٰ:

التعالم في الفتيا: والفتوى جمرة تضطرم، فاسمع ما شئت من فتاوى مضجِعة، محلولة العِقال، مبنية علىٰ التجري لا التحري، تُعنت الخَلق، وتَشجي الحلْق، لا تقوم علىٰ قدمي الحق، بل ولا علىٰ قدمي باطل وحق، حتىٰ هزأ بهم كبار الأجراء، وقالوا: فتيا بفرخة!.

وأكبر دليل علىٰ هذا: اضطراب حبل الفتيا، واستمرارهم أخياف مختلفون.

ومنه: ما تراه في أحوال بعض المنتسبين إلىٰ العلم، تراه قد غرز قدميه في بقعة التعالم، لا يرى من يَعشُرُه، مسروراً بما يُساء به اللبيب، يأنف من التجاسر علىٰ صرف المستفتي بلا جواب، فيتجاسر علىٰ القول علىٰ الله بلا علم، ويفتي اجتراراً من معلومات عفى عليها الزمن، ولا يدري كيف يستلها من مطاوي الكتب، بانياً علىٰ الظن؛ والظن أكذب الحديث، بل

(١) انظرها كاملة في المجموعة العلمية لبكر أبو زيد (٣٩-٥٤).

تراه ـ وسبحان الفتاح العليم ـ يَشرَعُ في الجواب قبل استكمال السؤال، ويلتفت يميناً وشمالاً، ويحِفُّ ويرِفُّ علىٰ الحضور، مختالاً بجوابه الإنشائي المهزول، يفتي في وقتٍ أضيق من بياض الميم، أو من صدر اللئيم، بما يتوقف فيه شيوخ الإسلام وأئمته الأعلام...

قال بعض العلماء: قلَّ من حرص علىٰ الفتيا، وسابق إليها، وثابر عليها، إلا قلَّ توفيقه، واضطرب في أموره.

وان كان كارهاً لذلك، غير مختار له ما وجد عنه مندوحة، وقدرَ أن يحيل بالأمر فيه علىٰ غيره: كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح في جوابه أغلب.

وقال بشر الحافي: من أحب أن يُسأل، فليس بأهلٍ أن يُسأل.

وذكر أبو عمر بن عبدالبر عن مالك: أخبرني رجل أنه دخل علىٰ ربيعة فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك؟ أمصيبة دخلت عليك! وارتاع لبكائه، فقال: لا، ولكن استفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم، قال ربيعة: ولَبعض من يفتي ههنا أحق بالحبس من السُّراق.

قال بعض العلماء: فكيف لو رأى ربيعة زماننا، وإقدام من لا علم عنده علىٰ الفتيا، وتوثبه عليها، ومد باع التكلف إليها، وتسلقه بالجهل والجرأة عليها، مع قلة الخبرة وسوء السيرة، وشؤم السريرة، وهو من بين أهل العلم منكر أو غريب، فليس له في معرفة الكتاب والسنة وآثار السلف نصيب، ولا يبدي جواباً بإحسان، وإن ساعد القدر فتواه، فتراه يقول: كذلك يقول

فلان ابن فلان...

يمدون للإفتاء باعاً قصيرة وأكثرهم عند الفتاوي يُكَذْلِكُ

ومعنى يكذلك: أي يقول كذلك قال فلان وفلان، ممن سبقه من العلماء.

وكثير منهم نصيبهم مثل ما حكاه أبو محمد بن حزم قال: كان عندنا مفتٍ قليل البضاعة، فكان لا يفتي حتىٰ يتقدمه من يكتب الجواب، فيكتب تحته: جوابي مثل جواب الشيخ، فقُدِّر أن اختلف مفتيان في جواب، فكتب تحتهما: جوابي مثل جواب الشيخين، فقيل له: إنهما قد تناقضا، فقال: وأنا أيضاً تناقضت كما تناقضا.

فمن أقدم بالجرأة علىٰ ما ليس له من فتيا أو قضاء أو تدريس، استحق اسم الذم، ولم يحلَّ قبول فتياه، ولا قضائه، هذا حكم دين الإسلام.

ثم قال الشيخ بكر: وحقاً إن المتعالم في الفتوى يفعل بنفسه ما لا يفعله العدو بعدوه، فإلىٰ الله الشكوى من تذاؤب أهل زماني.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والمنصب والولاية لا يجعل من ليس عالماً مجتهداً: عالماً مجتهداً، ولو كان الكلام في العلم والدين بالولاية والمنصب؛ لكان الخليفة والسلطان أحق بالكلام في العلم والدين، وبأن يستفتيه الناس، ويرجعوا إليه فيما أشكل عليهم في العلم والدين، فإذا كان الخليفة والسلطان لا يدعي ذلك لنفسه، ولا يلزم الرعية حكمه في ذلك بقول دون قول، إلا بكتاب الله وسنة رسوله: فمن هو دون

السلطان في الولاية أولى، بأن لا يتعدى طَوره، ولا يقيم نفسه في منصب لا يستحق القيام فيه.

واعلم يا أخي ـ بارك الله فيك وفي علمك، وعلَّمنا جميعاً ما لم نكن نعلم ـ: أنه قد جرت سنة الأجلَّة من العلماء، علىٰ التورع في: الفتيا والبحث والتأليف والمناظرة، وما جرى مجرى ذلك، وفي حِضار العلم وفنونه، فترى العالم مع جلالة قدره، وعلو منزلته، ينفي علمه في مواضع، ويتوقف في أخرى، ويرجع من قول إلىٰ آخر للتقوى، فيكون هذا من عظيم قدره وجلالة شأنه، ولا ينقص من علمه.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ نماذج لتوقف العلماء في الفتيا في مواضع كثيرة، رزقنا الله جميعاً السير علىٰ الهدي المستقيم وجعلنا من المعظمين لدينه والذابين عنه.

زكاة العلم

تكلم العلماء عما أوجبه الله علىٰ طالب العلم والعالم بعد تحصيلهم للعلم، أن الله أوجب عليهم زكاة لما تعلموه، وممن تكلم عن زكاة العلم الشيخ محمد بن أحمد بن سالم السفاريني في كتابه **(غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب)** فقد عقد مطلباً عن زكاة العلم[١]، فقال رحمه الله تعالىٰ:

مطلبٌ: لزكاة العلم طريقان:

اعلم أن لزكاة العلم ونحوه طريقين:

أحدهما: تعليمه للعالَم، فإن الله ﷻ ينمي علمه بذلك ويزكيه.

والثاني: العمل به، فإن العمل به أيضاً ينميه ويكثره، ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه.

وذكر الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين النووية[٢] في قوله ﷺ: «**ومن سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلىٰ الجنة**»[٣] قال: سلوك الطريق لالتماس العلم يدخل

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/ ٥٠).

(٢) النقل من السفاريني، وانظره في جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع علىٰ تلاوة القرآن وعلىٰ الذكر (٢٦٩٩).

فيه سلوك الطريق الحقيقي، وهو المشي بالأقدام إلىٰ مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطريق المعنوية المؤدية إلىٰ حصول العلم، مثل: حفظه ودراسته ومذاكرته ومطالعته وكتابته والتفهم له، ونحو ذلك من الطريق المعنوية التي يتوصل بها إلىٰ العلم.

وقوله «**سهَّل الله له به طريقاً إلىٰ الجنة**» قد يراد بذلك أن الله يسهِّل له العلمَ الذي طلبه، وسلك طريقه، وييسره عليه، فإن العلم طريق موصل إلىٰ الجنة.

وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القَمَر]، قال بعض السلف: فهل من طالب علم فيعان عليه.

وقد يراد أيضاً: أن الله ييسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله: الانتفاع به، والعمل بمقتضاه، فيكون سبباً لهدايته، ولدخول الجنة بذلك.

وقد ييسر لطالب العلم علوماً أخر ينتفع بها، وتكون موصلة إلىٰ الجنة، كما قيل: من عمل بما علم أورثه الله علمَ ما لم يعلم.

وكما قيل: ثواب الحسنةِ الحسنةُ بعدها.

وقد دلَّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مَريَم: ٧٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محَمَّد: ١٧].

وقد يدخل في ذلك أيضاً: تسهيل طريق الجنة الحسي يوم القيامة، وهو الصراط وما قبله، وما بعده من الأهوال، فييسر ذلك علىٰ طالب العلم للانتفاع به، فإن العلم يدل علىٰ الله من

أقرب الطرق إليه، فمن سلك طريقه ولم يَعوجَّ عنه، وصل إلىٰ الله، وإلىٰ الجنة من أقرب الطرق وأسهلها، فسهلت عليه الطرق الموصلة إلىٰ الجنة كلها، في الدنيا والآخرة. انتهى[١].

إلىٰ أن قال السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومن جملة حفظ العلم الذي أودعه الله عند حامله: أن يمتثل أمر الله فيه، فإن الله تعالىٰ أودع العلم من شاء من عباده، وأمرهم ببذله للناس، وتوعدهم علىٰ كتمانه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة].

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما اتخاذ العلم آلة يصطاد بها الدنيا: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عُرْف الجنة يوم القيامة**»، يعني: ريحها، رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه[٢].

وأخرج الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله

(١) يعني: انتهى كلام ابن رجب.

(٢) السنن لأبي داود كتاب العلم باب في طلب العلم لغير الله (٣٦٦٤) والسنن لابن ماجه في افتتاح الكتاب بالإيمان وفضائل الصحابة والعلم باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥٢) وصحيح ابن حبان كتاب العلم، ذكر وصف العلم الذي يتوقع دخول النار في القيامة لمن طلبه (٧٨) والمستدرك للحاكم كتاب العلم (٢٨٨).

ﷺ: «**بشِّر هذه الامة بالسَّناء والدين والرفعة، أو الرفعة والتمكين في الأرض، فمن عملَ منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الاخرة من نصيب**» وفي رواية البيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: «**بشِّر هذه الامة بالتيسير والسَّناء والدين والتمكين في البلاد، والنصر، فمن علم منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الاخرة من نصيب**»(١).

وقال ابن المبارك رضي الله عنه: ما شيء أفضل من طلب العلم لله، وما شيء أبغض إلىٰ الله من طلب العلم لغير الله.

وسئل الحسن: ما عقوبة العالم؟ قال: موت القلب، قيل: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الاخرة.

إلىٰ آخر كلام السفاريني رحمه الله.

(١) المسند للإمام أحمد ت/الرسالة(٢١٢٢٠) وصحيح ابن حبان كتاب البر والإحسان باب الإخلاص وأعمال السر(٤٠٥) والمستدرك للحاكم كتاب الرقاق (٧٨٦٢) وشعب الإيمان للبيهقي في إخلاص العمل لله وترك الرياء (٦٤١٤).

الغيرة على وقت الداعية والعالم

إن من أشد الأمور علىٰ طالب العلم والداعية: تحسُّرهُ علىٰ ذهاب أوقاته بلا فائدة، وقد عدَّها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين)، وهو يتحدث عن منزلة الغَيرة، وشمولها لكثير من الأمور، فذكر منها الغَيرة علىٰ الوقت إذا فات، والحقيقة أن طالب العلم والداعية يجد غُصَّةً في جوفه، حين يمر وقتُه دون فائدة، وتزداد غُصته حين يرى نظراءه من طلبة العلم والدعاة، وقد ظهر لهم أثر أو نتاج دعوي أو علمي، وحالهم في الوقت مثل حاله.

ولذلك عدَّها ابن القيم نوعاً من أنواع الغيرة فقال[1]:

والغَيرة علىٰ ثلاث درجات: الدرجة الأولى: غَيرة العابد علىٰ ضائع يستر ضياعه، ويستدرك فواته، ويتدارك قواه.

العابد هو العامل بمقتضى العلم النافع للعمل الصالح، فغَيرته علىٰ ما ضاع عليه من عمل صالح، فهو يستردُّ ضياعه بأمثاله، ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعل أمثالها، من جنسها وغير جنسها، فيقضي ما ينفع فيه القضاء، ويُعوِّض ما يقبل العِوَض، ويجبُر ما يمكن جَبرهُ.

وأما معنى (استدراك فواته)؛ فإن الفرق بين استرداد ضائعه

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤٩-٥١).

واستدراك فائته: أن الأول يمكن أن يسترد بعينه، كما إذا فاته الحج في عام، تمكَّنَ منه، فأضاعه في ذلك العام، استدركه في العام المقبِل، وكذلك إذا أخَّرَ الزكاة عن وقت وجوبها، استدركها بعد تأخيرها، ونحو ذلك.

وأما الفائت فإنما يُستدرك بنظيره، كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته، أو يكون مراده باسترداد الضائع واستدراك الفائت: نوعي التفريط في الأمر والنهي، فيستردُّ ضائعَ هذا بقضائه، وفعلِ أمثاله، ويستدرك فائتَ هذا ـ أي سالفه ـ بالتوبة والندم.

وأما تدارك قِوَاهُ: فهو أن يتدارك قوته ببذلها في الطاعة، قبل أن تتبدل بالضعف، فهو يغار عليها أن تذهب في غير طاعة الله، ويتدارك قوى العمل الذي لحقه الفتور عنه، بأن يكسوه قوة ونشاطاً، غيرة له وعليه، فهذه غَيرة العُبَّاد علىٰ الأعمال، والله أعلم.

والدرجة الثانية: الغَيرة علىٰ وقت فات، وهي غَيرة قاتلة، فإن الوقت وحِيُّ التقضِّي، ـ أي سريع الانقضاء ـ أَبِيُّ الجانب، بطيء الرجوع.

والوقت عند العابد هو وقت العبادة والأوراد، وعند المريد هو وقت الإقبال علىٰ الله، والجمعية عليه، والعكوف عليه بالقلب كله.

والوقت أعزُّ شيء عليه، يَغارُ عليه أن ينقضي بدون ذلك، فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة، لأن الوقت الثاني قد استحقَّ واجبَه الخاصَّ، فإذا فاته وقتٌ فلا سبيل له إلىٰ تداركه.

ومعنى: أنها غيرة قاتلة، يعني: مُضِرَّة ضرراً شديداً بيناً، يشبه القتل، لأن حسرة الفوت قاتلة، ولا سيما إذا عَلِمَ المتحسر أنه لا سبيل له إلىٰ الاستدراك.

وأيضاً فالغَيرة علىٰ التفويتِ تفويتٌ آخر، كما يقال: الاشتغال بالندم علىٰ الوقت الفائت: تضييعٌ للوقت الحاضر، ولذلك يقال: الوقت سيفٌ إن لم تقطعه وإلا قطعك.

ثم بيَّن الشيخ ـ يعني مؤلفَ كتاب منازل السائرين ـ السبب في كون هذه الغيرة قاتلة فقال:

فإن الوقت وحِيُّ التقضِّي أي سريع الانقضاء، كما تقول العرب: الوَحَا الوَحَا: العَجَل العَجَل، والوَحْيُّ: الإعلامُ في خفاء وسرعة، فالوقت منقض بذاته، منصرم بنفسه، فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته، واشتدت حسراته، فكيف حالهُ إذا علِم عند تحقق الفوتِ مقدارَ ما أضاع، وطلبَ الرُّجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع، وطلبَ تناولَ الفائتِ، وكيف يُردُّ الأمسُ في اليوم الجديد، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبأ]، ومُنِعَ مما يحبه ويرتضيه، وعَلِم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه.

فيا حَسَراتٌ، ما إلىٰ ردِّ مِثلِها سبيلٌ، ولو رُدَّتْ لهانَ التَّحسُّرُ

والمقصود: أن الواردات سريعة الزوال، تمر أسرع من السحاب، وينقضي الوقت بما فيه، فلا يعود عليك منه إلا أثره وحُكمُه، فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك، فإنه عائد عليك لا محالة، لهذا يقال للسعداء: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة]، ويقال للأشقياء: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ

﴿تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر].

انتهى كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا الموضوع المهم، الذي يشعر بالحسرة عليه من أحيا الله قلبه، في حفظ وقته والغيرة عليه من الضياع.

اهتمام الداعية بالسنة النبوية

من أشهر علماء الحديث في زمننا الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي صار الناس بعده عالةً عليه في تصحيح الحديث وتضعيفه، ولقد حفلت كتبه بحثٍّ شديد للدعاة وطلبة العلم علىٰ الاهتمام بالسنة النبوية، في العلم والعمل، وكان من ذلك مقال كتبه عام ١٣٧٥هـ في مجلة (المسلمون) بعنوان (عودة إلىٰ السنة)[١] يقول فيه:

لا شك أن المفروض في الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ أن يكونوا من أطوَعِ الناس لله تعالىٰ، وأسرعهم مبادرة إلىٰ تطبيق أحكامه عَزَّوَجَلَّ، فإذا كانوا مختلفين في فهم الإسلام فمن الواجب عليهم أن يحتكموا إلىٰ ما أمر الله به، من الرجوع إلىٰ السنة؛ لأنها هي التي تفسر القران، وتوضحه، وتبين مجمله، وتقيد مطلقه؛ كما يشير لهذا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: ٤٤].

وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النِّسَاء].

فهذه الآية الكريمة صريحة في أن من كان مؤمنًا حقًا رجع

(١) وأعيد نشر المقال كاملاً ضمن كتاب مقالات الألباني لنور الدين طالب (٢٩-٥٤).

عند الاختلاف إلىٰ حكم الله ﷻ في كتابه، وبيان رسول الله ﷺ في سنته، وأن الرجوع إليهما يرفع الخلاف، فوجب بنصِّ هذه الآية علىٰ الدعاة أن يرجعوا إلىٰ السنة الكريمة؛ ليرفعوا الخلاف بينهم.

ومما لا شك فيه أن الرجوع إلىٰ السنة يقتضي العلم بها، والمعرفة بما صحَّ منها، وما لم يصح، والدعاة في هذا العصر بين إحدى حالتين:

١- إما أن يكونوا قادرين علىٰ الرجوع إليها، وحينئذ فالطريق سهل بيِّنٌ، ليس عليهم إلا سلوكه، وهم في الغالب لم يفكروا في سلوكه بعد!

٢- وإما أن يكونوا عاجزين عن الرجوع إليها، بسبب جهلهم بها؛ كما هو الغالب مع الأسف علىٰ أكثر الدعاة، ففي هذه الحالة عليهم أن يُعدُّوا العُدة لتخريج جماعة، بل جماعات من العلماء، يتدارسون كتاب الله وسنة رسوله، ويتفقهون فيهما، ويصدرون الفتاوى معتمدين عليهما، كما كان عليه الأمر في عهد السلف الصالح، فإذا تحقق هذا ـ وهو واقع إن شاء الله تعالىٰ ولو بعد حين ـ نكون قد سلكنا النهج المستقيم للقضاء علىٰ الخلاف في فهم الإسلام، وبذلك يمكن حل المشكلة، التي تقف عقبة في سبيل الاتفاق علىٰ الأسلوب الذي ندعو به إلىٰ الإسلام.

ولهذا؛ فإني أرى أن أُبيِّن الأسباب التي تحمل دعاة السنة علىٰ الدعوة إليها، وترك كل قول يخالفها فأقول:

أولًا: أنها المرجع الوحيد بعد القرآن الكريم، وفي ذلك

آيات كثيرة معروفة، وعلىٰ ذلك إجماع الأمة.

ثانيًا: أنها عصمة من الوقوع في الخطأ، وأمان من التردي في الضلال؛ كما قال ﷺ في حجة الوداع: «يا أيها الناس! إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به؛ فلن تضلوا أبدًا كتاب الله، وسنة نبيه» رواه الحاكم في المستدرك، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله[(١)]، وليس كذلك اجتهادات الرجال وآراؤهم، ولذلك قال الإمام مالك رحمه الله: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه».

وقال شريح القاضي: «إن السنة سبقت قياسكم، فاتبعوا ولا تبتدعوا؛ فإنكم لن تضلوا ما أخذتم بالأثر».

ثالثًا: أنها حجة ملزِمَة باتفاق المسلمين، بخلاف آراء الرجال؛ فإنها غير ملزِمَة عند السلف وغيرهم من المحققين، قال الإمام أحمد رحمه الله: «رأي الأوزاعي، ورأي مالك، ورأي أبي حنيفة كله رأي، وهو عندي سواء، وإنما الحجة في الآثار».

رابعًا: أنه لا يمكن لطالب العلم أن يصير فقيهًا حقًا إلا بدراستها، فهي وحدها بعد القرآن الكريم تؤهله لأن يستنبط، ويقيس قياسًا صحيحًا إذا أعوزه النص، فلا يقع في مثل الأخطاء التي يقع فيها الجهال بها، كقياس الفرع علىٰ الفرع، أو الضد علىٰ الضد، أو القياس مع وجود النص، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: «إن أصح الناس قياسًا أهل الحديث، وكلما كان الرجل

(١) المستدرك للحاكم كتاب العلم (٣١٨)، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر باب معرفة أصول العلم وحقيقته (١٣٨٩).

إلىٰ الحديث أقرب كان قياسه أصح، وكلما كان عن الحديث أبعد كان قياسه أفسد».

خامسًا: أنه لا يمكن القضاء علىٰ ما دخل في المسلمين من البدع والأهواء إلا من طريق السنة، كما أنها سد منيع للوقوف في وجه المذاهب الهدامة، والآراء الغربية التي يزينها أصحابها للمسلمين، فيتبناها بعض دعاتهم ممن يدعي التجديد والإصلاح ونحو ذلك!

سادسًا: أن المسلمين اليوم قد شعروا ـ علىٰ اختلاف مذاهبهم وفِرقهم ـ أن لا مناص لهم من الاتحاد ونبذ الخلاف، حتىٰ يستطيعوا الوقوف صفًا واحدًا تجاه أعدائهم، وهذا لا يمكن إلا بالرجوع إلىٰ السنة لما سبق ذكره في الأسباب (١و٢و٣).

سابعًا: أنها تقرن مع ما تحمله من أحكام مرغِّبات في تنفيذها، ومرهِبات عن التساهل بها، وذلك أسلوب النبوة، وروح الشرع، مما يجعل أصحابها أرغب في القيام بأحكامها، من الذين يأخذونها من كتب الفقه العارية عن الدليل، وهذا أمر مشهود، ما أظن أن أحدًا حتىٰ من المتعصبين للمذاهب ينكره.

ثامنًا: إن المتمسك بها يكون علىٰ مثل اليقين في الأحكام التي يأخذها منها، بخلاف المقلدين الجهال بها، فإنهم يضلون بين الأقوال الكثيرة المتضاربة التي يجدونها في كتبهم، ولا يعرفون خطأها من صوابها.

تاسعًا: أن السنة تسد الطريق علىٰ الذين يريدون أن يتحللوا من الإسلام، باسم المذاهب الفقهية نفسها، ويتخذون من التلفيق باسم المصلحة ما يؤيد حجتهم! ولا يعجزون أن يجدوا

في ثنايا المذاهب في كل مسألة من المسائل ما يوافق ويؤيد مصلحتهم المخالفة للسنة، وهم لذلك يحاربون الرجوع إلىٰ السنة؛ لأنها تسد الطريق عليهم كما قلنا، وتكشف تسترهم وراء المذاهب، وسعة الشريعة الإسلامية بسعة الأقوال الكثيرة، والاجتهادات الغزيرة والثروة الفقهية الطائلة التي قلَّ أن تخرج مسألة عنها، والله أعلم بما يوعون.

فهذه بعض الأسباب التي تحضرني الآن مما يحمل أنصار السنة علىٰ الدعوة إليها، وإيثارها علىٰ خلافها، فكيف لا يدعون الناس إليها، ويرغبونهم في الاهتداء بهديها، والاستنارة بنورها.

إلىٰ آخر كلام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان علاقة الداعية إلىٰ الله بالسنة النبوية ودعوته إليها دائماً وأبداً.

آفة العلم النسيان

من أكثر ما يُذهب العلمَ من ذهن الداعية وطالب العلم هو النسيان، وقد روي في ذلك حديث لا يصح مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ، والصحيح أنه من قول الأعمش رَحِمَهُ اللَّهُ أو ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو قوله (آفة العلم النسيان)، وقد توسَّع الحافظ زين الدين عبدالرؤوف المناوي في كتابه **(فيض القدير في شرح الجامع الصغير)** في بيان معنى هذا القول فقال[(١)]:

(وآفة العلم النسيان) أي وعاهة العلم أن يُهمله العالم حتىٰ يذهب عن ذهنه، ومن ثَمَّ قال الحكماء: لا تُخل قلبك من المذاكرة، فيعود عقيماً، ولا تعف طبعك عن المناظرة، فيعود سقيماً.

وأعظم آفات العلم: النسيان الحادثُ عن غفلة التقصير، وإعمال التواني، فعلىٰ من ابتلي به أن يستدرك تقصيره، بكثرة الدرس، ويوقظ غفلته بإدامة النظر، فقد قالوا: لن يُدرك العلم من لا يطيل درسه، ويكدُّ نفسه.

وكثرةُ الدرس كَدُودٌ لا يَصبرُ عليه إلا من يرى العلم مغنماً، والجهالة مغرماً، فيتحمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم،

(١) فيض القدير في شرح الجامع الصغير (١/ ٤٩-٥١).

وتنتفي عنه مَعرَّةُ الجهل، وعلىٰ قدر الرغبة يكون الطلب، وبحسب الراحة يكون التعب، وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ؛ اعتماداً واتكالاً بعد فهم المعاني علىٰ الرجوع إلىٰ الكتب ومطالعتها عند الحاجة، فما هي إلا كمن أطلق ما صاده ثقة بالقدرة عليه، بعد الامتناع منه، فلا تعقبه الثقة إلا خجلاً، والتفريط إلا ندماً.

وكان الزُّهريُّ يُسمِّع علىٰ مشايخه إلىٰ الليل، ثم يأتي جاريته فيوقظها، فيقول لها: حدثني فلان بكذا وفلان بكذا، فتقول: وما لي ولهذا، فيقول: إنك لا تنتفعي، لكني سمعت الآن، فأردت أن أستذكره.

وكان ابن رجاء يأتي صِبيانَ الكُتَّابِ فيجمع الغلمان، فيُحدِّثهم لئلا ينسى.

قال النخعي: من سرَّه أن يحفظ العلم فليُحدِّث حتىٰ يسمعه، ولو ممن لا يشتهيه، فإذا فعل كان كالكتاب في صدره، ولا ينافي ذلك ما ورد في الأثر: (إن إضاعة العلم أن تحدِّثَ به غيرَ أهله)، لأن محله إذا كان لغير مصلحة، كالتذكر هنا.

والنسيان ذهولٌ ينتهي إلىٰ زوال المُدرَك من القوة المُدرِكة والحافظة، وحيث يحتاج في حصوله إلىٰ سبب جديد، والسهو ذهول عن المدرَكة، بحيث لا ينتهي إلىٰ زواله منها؛ بل يتنبه له بأدنى تنبيه، والتذكُّر استعادة ما أثبته القلب، مما تنحَّى عنه بنسيان أو غفلة.

ثم قال المناوي أيضاً في نفس الكتاب في شرح اللفظ الآخر لقول الأعمش: (آفة العلم النسيان، وإضاعته أن تحدِّث

به غيرَ أهله)[١]:

آفة العلم النسيان: قال التُّوربَشْتِيُّ: النسيان ترك ضبط ما استُودِع، إما لضعف قلبه، أو عن غفلة، أو قصد.

قال الماوردي: النسيان نوعان:

أحدهما: ينشأ عن ضعف القوة المتخيِّلةِ عن حفظ ما يغفل عنه الذهن، ومَنْ هذا حالُه قلَّ علىٰ الأضداد احتجاجه، وكثُرَ إلىٰ الكتب احتياجه، وليس لمن بُليَ به إلا الصبر، أو الإقلال، لأنه علىٰ القليل أقدر، وبالصبر أحرى أن ينالَ ويظفر.

وقال الحكماء: أَتْعِبْ قَدَمَك، فَكم تَعَبٍ قَدَّمَك، وقالوا: إذَا اشْتَدَّ الْكَلَفُ، هَانَتْ الْكُلَفُ.

والثاني: يحدث عن غفلة التقصير، وإعمال التواني، فينبغي لمن ابتليَ به استدراك تقصيره بكثرة الدرس، وإيقاظ غفلته بإدامة النظر، ومن ثَمَّ قيل: أكمل الراحة ما كان عن كدِّ التعب، وأعزُّ العلم ما كان عن ذُلِّ الطلب.

وإضاعة العلم أي إهماله وإتلافه وإهلاكه: أن تحدِّث به غير أهله، ممن لا يفهمه، أو لا يعمل به، فتحديثك له به إهمال له، أي جعلته بحيث صار مهملًا، أو إتلاف وإهلاك لعدم معرفته بما حدثته به، أو لعدم الانتفاع به، وكذا من هو لاهٍ، أو متغافلٍ، أو مستخف به، وهذا علىٰ الثاني استعارة بالكناية.

وأخرج البيهقي عن وهبِ بن منبِّهٍ: أن ذا القرنين لما بلغ مطلع الشمس قال له ملكها: صِف لي الناس؟ قال: محادثتك

(١) فيض القدير في شرح الجامع الصغير (١/ ٥٢).

من لا يَعقِل كلامك بمنزلة من يضع الموائد لأهل القبور، وكمن يطبخ الحديد يلتمس أُدْمَهُ، (يعني ينتظر من طبخه للحديد أن يتحول إلىٰ لحم).

قال لقمان: نقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يَفهم.

وأخرج البيهقي عن كَثيرٍ الحضرمي قال: لا تحدِّث بالحكمة عند السفهاء؛ فيكذِّبوك، ولا بالباطل عند الحكماء فيمقُتُوك، ولا تمنع العلم أهله فتأثَمَ، ولا تحدث به غير أهله فتُجهَّلَ، إنَّ عليك في علمك حقاً، كما أن عليك في مالك حقاً[(١)].

انتهى كلام المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان آفة العلم التي لا آفة أشدُّ منها، وهي النسيان، وقانا الله وإياكم شر ذلك، ورزقنا العلم القارَّ في قلوبنا، والفهمَ المرتَكِزَ في أذهاننا.

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان باب نشر العلم وأن لا يمنعه أهلُه أهلَه (١٦٣٠).

السماحة لدى الداعية والعالم

إن من أهم ما بنيت عليه الشريعة في كافة أحكامها مقصد السماحة، ومن ذلك السماحة لدى الداعية في دعوته وتعليمه للناس، وقد عنى العلماء المتقدمون بربط هذا المقصد بعمل العالم والداعي إلىٰ الله تعالىٰ، ومن بين مَن تكلم عن ذلك الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه **(مقاصد الشريعة الإسلامية)**، فقد عقد فصلاً كاملاً في القسم الثاني من كتابه[(١)]، الذي خصصه لمقاصد التشريع العامة، تحت عنوان (السماحة أول أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها) فقال:

السماحة: سهولة المعاملة في اعتدال، فهي وسط بين التضييق والتساهل.

وهي راجعة إلىٰ معنى الاعتدال، والعدل، والتوسط، ذلك المعنى الذي نوّه به أساطين حكمائنا، الذين عُنوا بتوصيف أحوال النفوس والعقول، فاضِلَها ودنِيَّها، وانتسابَ بعضها من بعض، فقد اتفقوا علىٰ أن قِوام الصفات الفاضلة هو الاعتدال، أي التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، لأن ذينك الطرفين يدعو إليهما الهوى، الذي حذّرنا الله منه في مواضع كثيرة، منها

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد الطاهر ابن عاشور (٣/ ١٨٨-١٩٣).

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [صٓ: ٢٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النِّسَاء: ١٧١]، وقوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحَديد: ٢٧]، فإن ذلك متعلق بأهل الكتاب ابتداء، ومراد منه موعظة هذه الأمة؛ لتجتنب الأسباب التي أوجبت غضب الله علىٰ الأمم السابقة وسقوطَها.

فالتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط هو منبع الكمالات، وقد قال الله تعالىٰ في وصف هذه الأمة أو وصف صدرها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]، روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في معنى الآية: أن الوسط هو العدل[(١)]، أي بين طرفي الإفراط والتفريط، وبذلك جزم المحقّقون في تفسير هذه الآية، وبه فُسِّر أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القَلَم: ٢٨]، أي أعلمهم وأعدلهم، وقد شاع هذا المعنى في الوسط.

وقال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير التابعي: "خير الأمور أوساطها"، وبعضهم يرويه حديثاً، وهو مشهور علىٰ الألسنة، ولكنه ضعيف الإسناد[(٢)].

فالسماحة: السهولة المحمودة فيما يظنّ الناس التشديد فيه، ومعنى كونها محمودة: أنها لا تفضي إلىٰ ضر أو فساد، وفي الحديث الصحيح عن جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلاً، سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً**

(١) رواه البخاري في صحيحه في عدة مواضع منها كتاب الأنبياء باب ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ...﴾ [نُوح: ١](٣٣٣٩).

(٢) روي مرسلاً في شعب الإيمان للبيهقي في الملابس والأواني والزي وما يكره منها (٥٨١٩) والصواب أنه من قول مطرف رواه البيهقي أيضاً في الشعب في الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال الباطل (٦١٧٦).

إذ اقتضى»[(١)].

ووصفُ الإسلام بالسماحة ثبَتَ بأدلة القرآن والسنة، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحَجّ: ٧٨]، وقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المَائدة: ٦]، وقال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦].

وفي الحديث الصحيح عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَحبُّ الدّين إلىٰ الله الحنيفية السمحة**» رواه ابن أبي شيبة، وأخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً[(٢)]، أي أحبُّ الأديان إلىٰ الله دين الإسلام، الذي هو الحنيفية السمحة، فقد أثبت أن السماحة هي وصف الإسلام، وفيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يُسرٌ، ولن يُشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غَلَبهُ**»[(٣)] أي كان الدين غالباً.

واستقراء الشريعة دلَّ علىٰ أن السماحة واليسر من مقاصد الدين.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه بلفظ (سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) في كتاب البيوع باب في السهولة والسماحة في الشراء والبيع (٢٠٧٦) وأما اللفظ الذي ذكره المؤلف هنا فرواه عدد منهم البيهقي في شعب الإيمان في حسن الخلق فصل في حسن العشرة (٧٧٥٨) بلفظ (عبداً) وقال بعده: (رواه البخاري عن علي بن عياش).

(٢) لم أجده في المطبوع من المصنف لابن أبي شيبة ولم أجد أحداً أحاله إلىٰ المصنف، وأما البخاري فذكره معلقاً في صحيحه في كتاب الإيمان باب الدين يسر (١/١٦) ورواه موصولاً غير واحد منهم عبدالرزاق في مصنفه كتاب الطهارة باب الوضوء عن المطاهر (٢٣٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب الدين يسر (٣٩).

وفي الحديث الصحيح ـ في البخاري وغيره ـ أن رسول الله ﷺ بعث علياً ومعاذاً إلىٰ اليمن وقال لهما: «**يسِّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تُنفِّرا**»[(١)]، وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**إنما بعثتم مُيسّرين ولم تبعثوا معسّرين**»[(٢)]، وعن عائشة: «**كان رسول الله ما خُيِّر بين أمرين إلّا اختار أيسرَهما، ما لم يكن إثماً**»[(٣)]، والمراد من الإثم: ما دلت الشريعة علىٰ تحريمه.

قال الشاطبي في مواضع متكرّرة من كتابه (الموافقات): «إن الأدلة علىٰ رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع»[(٤)]، واستدل لذلك بكثير من الأدلة التي ذكرناها آنفاً.

وأقول ـ والمتكلم هنا محمد الطاهر بن عاشور ـ: إن حكمة السماحة في الشريعة أن الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعة إلىٰ الجبلة، فهي كائنة في النفوس سهلٌ عليها قبولُها.

ومن الفطرة: النفور من الشدة والإعنات، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النِّسَاء]، وقد أراد الله تعالىٰ أن تكون شريعة الإسلام شريعة عامة ودائمة، فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلاً، ولا يكون ذلك إلّا إذا انتفى عنها الإعنات، فكانت بسماحتها أشد ملاءمة

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من الخلاف والتنازع في الحرب (٣٠٣٨).
(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوضوء باب صب الماء علىٰ البول في المسجد (٢٢٠).
(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٠).
(٤) الموافقات للشاطبي (١/ ٥٢٠).

للنفوس، لأن فيها إراحة النفوس في حالي خُويصَتِها ومجتمعها.

وقد ظهر للسماحة أثر عظيم في انتشار الشريعة وطول دوامها، فعُلم أن اليسر من الفطرة، لأن في فطرة الناس حب الرفق، ولذلك كره الله من المشركين تغيير خلق الله، فأسنده إلىٰ الشيطان، إذ قال عنه: ﴿وَلَأُمَرِّنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأُمَرِّنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ١١٩]، وذلك من حيث يكون التغيير خِلْوًا عن المصلحة، فأما إذا كان لمعنى أدخل في الفطرة، لا يصير مذموماً بل يكون محموداً، مثل: الختان، وتقليم الأظفار، وحلق الرأس في الحج.

انتهى كلام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو يناجي الداعية والفقيه والعالم في استشعار هذا المقصد المهم وهو مقصد السماحة، في دعوته ونشره للعلم بين الناس، فرحم الله علماءنا، لقد أوضحوا النهج ورسموا الخطى لنا، فنحن بين مقل ومستكثر.

هل يدرك الدين بالعقل أم لا بد من العلم؟

عقد الحافظ قوَّام السنة إسماعيل بن محمد التيمي الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ فصلاً في آخر كتابه **(الحُجَّةُ في بيان المَحجَّة وشرحُ عقيدة أهل السنة)** يجيب فيه علىٰ سؤال لا تزال تطرحه بعض العقول المشككة في الدين أو بعض شعائره، بحجة أن العقل لا يدرك كنهها، أو أن العقل يدرك ما لا يدرك بالعلم، فبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ الرد علىٰ ذلك، ببيان أن العلم أهم من العقل، وأن الدين لا يُدرك بالعقل، فقال[1]:

قال بعض العلماء: الدين لا يدرك بالعقل، والعقل نوعان: غريزي واكتسابي، فالغريزي ما يكون موجوداً مع المولود، كعقله للارتضاع وأكل الطعام، وضحكه مما يسره، وبكائه مما لا يهواه، وامتناعه مما يضره، كل هذا يعقله بالعقل الغريزي.

وأصل العقل في اللغة الحبس، والحيوان قد يحبس نفسه عما يضره، وذلك إلهام يدعوه إلىٰ ما ينفعه، حتىٰ لا يقرب مما فيه ضرره وهلاكه، بل ينفر منه ولا يأكل مما يضر به، أو يكون سُمًّا من النبات وغيره.

ثم يكتسب الصبي زيادة في العقل علىٰ مرور الأيام، إلىٰ أن يبلغ أربعين سنة، فحينئذ يكمل عقله، قال الله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ

(١) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة (٢/ ٥٤١-٥٤٥).

﴿إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]، أي بلغ كمال العقل، وبلغ أربعين سنة، ثم بعد ذلك يأخذ عقله في النقصان، إلىٰ أن يخْرِف، وتلك الزيادة عقلٌ اكتسابي.

فأما العلم يكون كل يوم في زيادة، ومنتهى تعلم العلم منتهى العمر، فالإنسان لا يصير مستغنياً عن زيادة العلم ما دام به رَمَق، وقد يستغني عن زيادة العقل إذا بلغ منتهاه، وهذا يدل علىٰ أن العقل أضعف من العلم، وأن الدين لا يُدرَك به لضعفه وقلته، ويُدرَك بالعلم لقوته وكثرته، ويدل علىٰ ذلك أن العاقل إذا جُنَّ ذهب عنه العقل الاكتسابي، ولم يهتد إلىٰ أمر الآخرة وما يتعلق بالدين، وبقي معه العقل الغريزي، يفعل ما يفعله الصبي، وعَقَلَ نفسه عمَّا يعْقِله، ولم يذهب عنه ما يتعلق بالأمور الدنيوية من الأكل والشرب، والإمساك عما يضر به، والإسراع إلىٰ ما ينفعه، فدلَّ أن قليل العقل وكثيره لا مجال له في الدين، ما لم تنضم إليه قرينة.

ولأن العقل يتضمن ظناً وشكاً، لأن العاقل إذا قال شيئاً في أمر الدين؛ يعقله، قال: كذا يوجب عقلي، فيكِل علم ذلك إلىٰ عقله وظنه، والعالم يقول: هذا الذي أعلمه يقيناً وأتحققه.

ومن الدليل علىٰ ضعف العقل وأن الدين لا يدرك به: أن الله تعالىٰ ذم المنافقين الذين كانوا يرجعون في نفاقهم إلىٰ عقولهم فقال تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البَقَرَة] أي من بعد ما قالوا: وقفنا علىٰ كلام الله تعالىٰ بعقولنا، وهم يعلمون بطلان ما أدركوه بعقولهم.

فدل هذا علىٰ أن معنى كلام الله لا يُدرك بالعقل، وإنما يُدرك بالعلم، ولأن العقل لا مجال له في إدراك الدين بكماله، وبالعلم يدرك بكماله، ولأن العلم يستحسن أشياء في الدين ولا يردُّها شرعاً، ويستقبحها العقل ويردُّها طبعاً، فإن مجامعة الزوج امرأته يردها العقل، ويحسنها العلم والشرع، وأكل الميتة كالسمك والجراد، وأكل الدم كالكبد والطِّحال، وأكل الكرش الذي هو وعاء النجاسات، وإن غُسِّلَ وطُهِّرَ بالماء، فإن الطبع ينفر عن تناوله، والعلم يُحِلُّه، وكذلك قتل الحيوان من الصيد والدواب، ينكره العقل، لا سيما قتل الإنسان، والشرع والعلم يُحِلُّه إذا كان واجباً.

فبان أن العقل لا مجال له في درك الدين، إذا كان منفرداً عن قرينة، ولو كان للعقل مجال في الدين، يُدرِك به الدين، لكان العقلاء من الكفار لا يصرون علىٰ الكفر، ويبصرون الدين القويم، لا سيما كفار قريش، الذين كانوا معروفين بوفور العقل، وأصالة الرأي، حتىٰ وصفهم الله تعالىٰ في كتابه فقال: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطُّور: ٣٢] أي عقولهم، فدل أن العقل لا يهدي إلىٰ الدين.

وقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: لو كان الدين بالعقل لكان باطن الخفِّ أولى بالمسح من ظاهره[(١)].

ولأن الخارج النجس من مخرج الحدث، يوجب غسل بعض أعضاء الجسد، والخارج الذي هو طاهر في قول كثير

(١) رواه أبو داود في سننه في كتاب الطهارة باب كيف المسح عن علي رضي الله عنه (١٦٢) بلفظ: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه»، ولم أجده باللفظ الذي ذكره المؤلف (لو كان الدين بالعقل).

من العلماء يوجب غسل البدن كله، وهكذا التيمم، ولو كان بالرأي لكان علىٰ أعضاء الوضوء، أو علىٰ جميع البدن.

ولو كان العقل يغني لما أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ بالمشاورة في الأمر، مع تمام عقله ووفور رأيه، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] أي لا تتكل علىٰ عقلك وحده، فدل هذا علىٰ ما قلناه.

قال بعض العلماء: لا يوصف الله بكونه عاقلاً، ويوصف بكونه عالماً، فدل أن العلم أقوى من العقل.

انتهى كلام الحافظ قوَّام السنة إسماعيل بن محمد التيمي الأصفهاني، حول هذه المسألة المهمة، التي لا زال يُشوَّش بها علىٰ الناس، بين فترة وأخرى حول عدم اتساع العقل لبعض مفاهيم الشريعة، فالعقل لا يكفي بدون العلم الشرعي.

حقوق الأخوة والصحبة

عقد الشيخ محمد جمال الدين القاسمي في كتابه **(موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين)** في بيان بعض الحقوق الواجبة علىٰ الأخ لأخيه، وهي تبرز كثيراً إذا اجتمع معها أخوة الدين أو العلم، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

اعلم أن لأخيك عليك حقاً في المال، وفي الإعانة بالنفس، وفي اللسان والقلب، وفي العفو، وفي الدعاء، وفي الوفاء والإخلاص، وفي التخفيف، وفي ترك التكلف والتكليف،... ثم بدأ في تفصيل هذه الحقوق.

ومن بين الحقوق التي نرى أننا في حاجة إلىٰ التذكير بها ما سماه المؤلف: (الحق الواجب لأخيك علىٰ اللسان بالنطق)، حيث قال:

الأُخوَّةُ كما تقتضي السكوت عن المكاره، تقتضي أيضاً النطق بالمحابِّ، بل هو أخص بالأخوة، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما يراد الإخوَةُ ليستفاد منهم، لا ليتخلص عن أذاهم، والسكوت معناه: كفُّ الأذى، فعليه أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله التي يحب أن يتفقد فيها، كالسؤال عن عارض إن عرض، وإظهار شغل القلب بسببه، واستبطاء العافية عنه، وكذا جملة أحواله التي يكرهها، ينبغي أن

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (١٣٤-١٣٦).

يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها، وجملة أحواله التي يسر بها، ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها.

فمعنى الأخوة: المساهمة في السراء والضراء، وقد قال ﷺ: «**إذا أحبَّ أحدكم أخاه فليخبره**»(١)، وإنما أمر بالإخبار، لأن ذلك يوجب زيادة حب، فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين، ويتضاعف، والتحابُّ بين المؤمنين مطلوب في الشرع، ومحبوب في الدين، ولذلك علَّم النبي ﷺ فيه الطريق فقال: «**تهادوا تحابوا**»(٢).

ومن ذلك: أن تدعوه بأحب أسمائه إليه، في غيبته وحضوره، قال عمر رضي الله عنه: ثلاث يُصفِّين لك ودَّ أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً، وتُوسِعَ له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه(٣).

ومن ذلك: أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله، عند من يُؤثِرُ هو الثناء عنده، فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة، وكذلك الثناء علىٰ أولاده وأهله، وصنعته وفعله، حتىٰ علىٰ عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه، وجميع ما

(١) أخرجه أبو داود في السنن كتاب الأدب باب إخبار الرجل بمحبته إياه (٥١٢٤) ورواه الترمذي في الجامع في أبواب الزهد باب ما داء في إعلام الحب (٢٣٩٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥١٢٤).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد باب قبول الهدية (٥٩٤) والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الهبات باب التحريض علىٰ العبة والهدية صلة بين الناس (١١٩٧٤) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد وقال ليس في شيء من الكتب الستة.

(٣) رواه غير واحد مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ لكنه لا يصح رفعه، ورواه موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه أبو عبدالرحمن السلمي في آداب الصحبة (٤٢)، وانظر كلام الألباني علىٰ طرقه في السلسلة الضعيفة (٣٤٤٢).

يفرح به، وذلك من غير كذب وإفراط، ولكن تحسينُ ما يَقبل التحسين، لا بد منه، وآكد من ذلك أن تُبلِغه ثناء من أثنى عليه، مع إظهار الفرح، فإن إخفاء ذلك محض الحسد.

ومن ذلك: أن تشكره علىٰ صنيعه في حقك، بل علىٰ نيته، وإن لم يتم ذلك، وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة: الذبُّ عنه في غيبته، مهما قُصِدَ بسوء، أو تُعرِّضَ لعرضه بكلام صريح أو تعريض، فحقُّ الأخوة التشمير في الحماية والنصرة، وتبكيت المتعنت، وتغليط القول عليه، والسكوت عن ذلك موغر للصدر، ومنفِّر للقلب، وتقصير في حق الأخوة، وإهماله لتمزيق عرضه؛ كإهماله لتمزيق لحمه، وتمزيق الأعراض أشد علىٰ النفوس من تمزيق اللحوم، ولذلك شبهه الله تعالىٰ بأكل لحوم الميتة فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] فإذن: حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء، وتعنت المتعنتين، واجب في عقد الأخوة، وقال بعضهم: ما ذكر أخ لي بغيب، إلا تصورته جالساً، فقلت فيه ما يحب أن يسمع لو حضر.

ومن ذلك: التعليم والنصيحة، فليس حاجة أخيه إلىٰ العلم بأقلَّ من حاجته إلىٰ المال، فإن كنت غنياً بالعلم، فعليك مواساته من فضلك، وإرشاده إلىٰ كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم، فعليك النصيحة، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل، وفوائد تركه، وتُخوِفَه بما يكرهه في الدنيا والآخرة، لينزجر عنه، وتنبهه علىٰ عيوبه، ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سرٍّ لا يطلع عليه أحد، فما كان علىٰ الملأ فهو فضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة.

ولا تظنن أن في نصح أخيك إيحاشاً لقلبه، فإن في تنبيهه علىٰ ما لا يعلمه عين الشفقة، وهو استمالة القلوب، أعني: قلوب العقلاء، وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم.

فإن من ينبهك علىٰ فعل مذموم تعاطيته، أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها، كان كمن ينبهك علىٰ حية أو عقرب تحت ذيلك، وقد همت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشدَّ حمقَك، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يستهدي ذلك من إخوانه، ويقول: رحم الله امرأً أهدى إلىٰ أخيه عيوبه[1].

وهذا في عيب هو غافل عنه، فأما ما يظهره فلا بد من التلطف بنصحه، بالتعريض مرة، والتصريح أخرى، إلىٰ حدٍّ لا يؤدي إلىٰ الإيحاش، فإن علمت أن النصح غير مؤثِّرٍ فيه، وأنه مضطر من طبعه إلىٰ الإصرار عليه، فالسكوت عنه أولى، وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه أو دنياه، أما ما يتعلق بتقصيره في حقك، فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه، والتعرض لذلك ليس من النصح في شيء، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلىٰ القطيعة، فالعتاب في السر خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والمكاتبة خير من المشافهة، والاحتمال خير من الكل.

انتهى كلام جمال الدين القاسمي عن هذا الحق الذي نحن بحاجة إليه في تعاملنا مع إخواننا وأصحابنا، جعلنا الله جميعاً أخوة متحابين فيه، ليس بيننا آصار ولا أحقاد.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ في شيء من الكتب المسندة، ووجدته عن الدارمي في السنن في المقدمة باب إعظام العلم ضمن رسالة عباد بن عباد الخواص بلفظ قال عمر: «رحم الله من أهدى إلي عيوبي» (٦٧٥).

ضرر بهرجة العالم والمفتي

اختصر الشيخ العالم عبدالله ابن أبي جمرة الأندلسي (صحيح البخاري) فانتقى منه (٢٩٧) حديثاً من أبوابها، ثم شرح هذا المختصر في كتاب سماه **(بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها)**، يبين عند شرحه لتلك الأحاديث ما يستفاد من الحديث من: أحكام فقهية، وآداب شرعية، مقسماً كلامه في الحديث إلىٰ وجوه، مكثراً منها.

وبعد بيان أحكام الشريعة يتكلم علىٰ الحقيقة، بمعنى ما يؤخذ من الأحاديث في تهذيب النفس، وهو كتاب عظيم القدر، بديع المعنى.

وقد ذكر وجوهاً كثيرة عند شرحه لحديث: «قبض العلم بموت العلماء»، وهو ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[(١)].

فذكر ابن أبي جمرة عشرين وجهاً في بيان ما يستفاد

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب العلم باب كيف يقبض العلم (١٠٠).

منه[١]، أذكر خمسة منها هنا، لتوجهها إلىٰ الداعية وطالب العلم والمفتي والمستفتي.

أما **الوجه الأول** منها فقال[٢]: فيه دليل علىٰ أن حقيقة الرياسة لا تكون إلا بالعلم إذا كان علىٰ حقيقته، وهو أن يكون لله خالصاً، علىٰ مقتضى الكتاب و السنة، وأن رياسة غير العالم ليس بحقيقة، لأنه ﷺ نصَّ علىٰ أن العالم ما دام بين أظهر الناس دام به الخير، وأن الجاهل إذا كان مكانَه وقع به الضلال والهلاك، والعلة في هذا المعنى ظاهرة بادية، لأن كل الناس يحتاجون الى العالِم، ليرشدهم لطريق ربهم، ويبين لهم أمره ونهيه، وغير العالِم ليس كذلك، لأنه قد يحتاج إليه بعض الناس في تلك الخِطَّة التي رأس بها، وقد لا يحتاج إليه، وهو الكثير.

فهذه هي حقيقة الرئاسة، وقد بدا الآن ظهور ما أخبر الصادق ﷺ: رأسوا بغير علم، فاستفتوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وضل من اتبعهم، فلينتبه الجاهل المسكين من غفلته، وليفق من سكرته، وليحذر من هذا الأمر العظيم الذي حلَّ به.

ومن الوجوه التي ذكرها في بيان معنى هذا الحديث، وهو **الوجه الثاني**[٣]: فيه دليل علىٰ أن البهرجة لا تجوز علىٰ عالم، لأن العوام إنما اتخذوا هؤلاء الجهال رؤوساً لأجل تشبههم بأهل العلم في الكُتب مثلاً، وفي جنس الكتب والنظر فيها، فلما

(١) بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها لابن أبي جمرة (١/ ١٣٨-١٤٥).
(٢) وهو الوجه الثالث عشر من تعداد المؤلف (١/ ١٤٣).
(٣) وهو الوجه السابع عشر من تعداد المؤلف (١/ ١٤٣-١٤٤).

رأى الناس ما جرت العادة به، يكون عَلَماً علىٰ العِلم وهو النورُ، ظَنُّوهُم من الرؤوس حقيقة، فصحَّت البهرجة علَيهم، ولهذا قال يمن بن رزق رَحِمَهُ اللَّهُ: لقِلة العقلاء لم يُعرف الحمقى.

وهذا المعنى بنفسه قد ظهر اليوم في زماننا هذا، وكثُرَ وتفاحش، قوم يقرءون النحو والأصول والمنطق وعلم الكلام وعلم الطبائع وما أشبه ذلك، ثم يدَّعون بها الرئاسة، ويريدون أن يفتوا في دين الله بتلك العلوم، ويرجح ذلك عندهم بعقولهم الفاسدة، حتىٰ أن بعضهم يدَّعي الاجتهاد علىٰ زعمه، ويخطِّئ من تقدم من الفضلاء وأئمة الدين، وذلك لقلة فهمه لما قالوا، وسوء ظنه بهم، لأنه لو حسَّن بهم الظن، لعاد عليه من بركتهم بما يفهم كلامهم، فالحذر الحذر من هذه الطائفة الرديئة، والعصابة الجهنمية، وقد حذر عَلَيْهِ السَّلَامُ عنها، وبيَّنها أتم بيان، فقال: «**يأتي في آخر الزمان أقوام يحدثونكم بما لم تعرفوا أنتم ولا آباؤكم**»[(١)]، أو كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ، فخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخويصة نفسك.

ومن الوجوه التي ذكرها في شرح هذا الحديث وهو **الوجه الثالث**[(٢)]: فيه دليل علىٰ أن العامي وظيفته السؤال، والامتثال دون بحث، لأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يجعل لهم في الحديث وظيفة إلا السؤال وامتثال ما أشير عليهم في ذلك السؤال، وإنما ضلُّوا إذ أنهم لم يصادفوا الرأس الحقيقي.

---

(١) رواه الإمام مسلم في مقدمة الصحيح باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم (٦) ولفظه: «سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم».

(٢) وهو الوجه الثامن عشر من تعداد المؤلف (١/ ١٤٤).

والوجه الرابع[١] هو: أن فيه دليلاً علىٰ أن من عمل بفتوى علىٰ غير وجهها يلحقه من الإثم مثل ما يلحق المفتي بها، لأنه ﷺ قد جعله ضالاً كما جعل ضلال المفتي له بذلك سواء، يؤيد هذا المعنى و يزيده إيضاحاً ما روي عنه ﷺ في الضد أنه قال: «**العالم و المتعلم شريكان في الأجر**»[٢]، والصواب أنه من قول أبي الدرداء.

والوجه الخامس مما انتقيناه من الوجوه التي ذكرها ابن أبي جمرة[٣]: أن فيه دليلاً علىٰ أن الجاهل لا يُعذر بجهله عند وقوعه في المحذور، لأنه ﷺ قد جعل العوام الذين لم يصيبوا بفتياهم أهلَها، ضالين مثلُ الذين أفتوهم بها، مع أنهم المساكين جاهلون بالأمر، ليس لهم معرفة بما يميزون الفتيا الصحيحة من السقيمة، فارجِع أيها الهائم الى طريق الرشاد، قبل سبق الحرمان بغلق الباب.

والوجوه التي ذكرها ابن جمرة حول هذا الحديث يطول المقام بذكرها كاملة، كلها دالة علىٰ خطورة التسرع في تنصيب الشخص للفتيا مع عدم أهليته لذلك، وعلىٰ خطورة سؤال أمثال هؤلاء.

---

(١) وهو الوجه التاسع عشر من تعداد المؤلف (١/ ١٤٤).

(٢) رواه غير واحد مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ منهم ابن ماجه في السنن أبواب السنة باب فضل العلماء والحث علىٰ طلب العلم (٢٢٨) وجميع أسانيده مرفوعاً ضعيفة، وروي موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه رواه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١٣٤)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٧٩٧).

(٣) وهو الوجه العشرون من تعداد المؤلف (١/ ١٤٤).

كيف يؤدي المثقفون واجبهم نحو الأمة؟

ترك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ آثاراً كثيرة، وقد عاش في صراع مع بعض الثقافات الواردة إلىٰ بلاده (الجزائر) مما جعله يسعى لتصحيح بعض المفاهيم حول الثقافة العربية، وما هو واجب المثقف، فكانت له رسالة طويلة في توضيح واجب المثقفين نحو الأمة، نختار جزءً منها، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

كلمة المثقف آتية من تثقيف الرمح، وهو تقويم قناته، بغمزها وتشذيب زوائدها الناتئة، وإزالة الاعوجاج من كعوبها، ويقولون للغلام المتدرب علىٰ اللعب بالسلاح وعلىٰ الرمي بالحراب والتلاعب بالرماح: غلام مثاقف، وهو وصف قريب الصلة بكلمة التثقيف.

ولم تكن العرب تستعمل كلمة مثقف بالمعنى الذي نعرفه الآن، وإنما كانوا يقولون في مثله: رجل لَقِنٌ وزَكِنٌ، ويقولون في معنى الثقافة عندنا: اللقانة والزكانة، ولما جاءت نهضتنا الحاضرة اختارت للدلالة علىٰ هذا المعنى كلمة الثقافة، وجعلتها ترجمة لكلمة إفرنجية.

فالمثقف هو الرجل المُهَذَّب، المستنير الفكر، المجوهر العقل، المستقل الفكر في الحكم علىٰ الأشياء، الجاري في

(١) آثار محمد البشير الإبراهيمي (٢/ ١٢٢-١٣٠).

تفكيره علىٰ قواعد المنطق لا علىٰ أسس التخريف، المطلع علىٰ ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه، المُلم بجانب من معارف عصره.

وقد تتسع الثقافة بوفرة الحظ من الأخلاق، وكثرة المعلومات، وقد تضيق بقلتهما، وقد تنقسم باعتبارات جنسية أو لغوية أو دينية، فيقال: الثقافة العربية أو الفرنسية، ويقال: الثقافة الإسلامية أو المسيحية مثلًا.

منزلة المثقفين في الأمم الحية:

والمثقفون في الأمم الحية هم خيارها وسادتها، وقادتها وحرّاس عزها ومجدها، تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير، وما زالت عامة الأمم، من أول التاريخ تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها، تحتاج إليهم في أيام الأمن وفي أيام الخوف.

تحتاج إليهم في أيام الأمن لينهجوا لها سبيل السعادة في الحياة، ويغذونها من علمهم وآرائهم بما يحملها علىٰ الاستقامة والاعتدال، وتحتاج إليهم في أيام الخوف ليحلوا لها المشكلات المعقدة، ويخرجوها من المضائق محفوظة الشرف والمصلحة.

والمثقفون هم حفظة التوازن في الأمم، وهم القومة علىٰ الحدود أن تهدم، وعلىٰ الحرمات أن تنتهك، وعلىٰ الأخلاق أن تزيغ، وهم الميزان لمعرفة كل إنسان حدَّ نفسه، يراهم العامي المقصر فوقَه، فيتقاصر عن التسامي لما فوق منزلته، ويراهم الطاغي المتجبر عيونًا حارسة، فيتراجع عن العبث والاستبداد.

إذا كانوا متبوعين فمن حق غيرهم أن يكون تابعًا، أو كانوا

في المرتبة الأولى فمن حق غيرهم أن يكون في الثانية، ولا أضر علىٰ الأمم من الفوضى في الأخلاق والفوضى في مراتب الناس.

كيف يؤدي المثقفون واجبهم نحو الأمة:

إن أول واجب علىٰ المثقفين: إصلاح أنفسهم قبل كل شيء، كلٌّ واحد في حدِّ ذاته، إذ لا يُصلِح غيرَه من لم يُصلِح نفسه، ثم إكمال نقائصهم العلمية واستكمال مؤهلاتهم التثقيفية، حتىٰ يَصلحوا لتثقيف غيرهم، إذ ما كل مثقفٍ يكون أهلًا لأن يُثقِّفَ، وإذا كان المثقفون قبل اليوم في حالة إهمال، فحالتهم إذا هيأوا أنفسهم لتأدية الواجب تستلزم اهتمامًا آخر واستعدادًا جديدًا.

وثاني واجب: هو إصلاح مجتمعهم، كل طائفة مع كل طائفة، بالتعارف أولًا، وبالتقارب في الأفكار ثانيًا، ومن طبيعة الاجتماع أنه يحذف الفضول واللغو، وبالتفاهم في إدراك الحياة، وتصحيح وجوه النظر إليها ثالثًا، وبالاتفاق علىٰ تصحيح المقياس الذي تقاس به درجة الثقافة رابعًا.

وهذه المسألة الأخيرة من ألزم اللوازم، فإن التباعد بين المثقفين، وخصوصًا بين أهل الثقافة العربية والثقافات الأخرى، أدّى إلىٰ فتح الباب وكثرة المتطفلين، فأنا من جهتي لا أرضى بحال أن أَحشُرَ في زمرة المثقفين كلَّ من يكتب بالعربية الصحيحة مقالة في جريدة، ولا كلَّ من يستطيع أن يخطب في مجتمع، وهو مع ذلك عَارٍ من الأخلاق، أو لا يحسن الضروريات، وما أكثر هذا الصنف فينا، وهم يُعدُّون في نظر

الناس وفي نظر أنفسهم من المثقفين، وأنا أشهد الله أن هذا ظلم للثقافة ما بعده ظلم، كما أنه يوجد في الثقافات غير المسلمة عدد كثير من حملة الشهادات يزعمون لأنفسهم، أو يزعم لهم الناس، أو يزعم لهم العرف الخاطئ أنهم من المثقفين، وهذا كذلك ظلم للثقافة لا أرضاه، وإن أمثال هؤلاء من الطرفين ما دخلوا في عمل إلا أفسدوه، لنقص معلوماتهم، أو فساد أخلاقهم، وقِصر أنظارهم وجهلهم بالتطبيق، ولا نستريح من هؤلاء إلّا إذا جاء وقت العمل، فإن القافلة إذا سارت وشدت الرّحال، تخلف العاطل، وظهر الحق من الباطل.

وإذا تمت الإصلاحات الأربعة جاء الخامس والأخير وهو الامتزاج بالأمة، والاختلاط بطبقاتها، والتحبب إليها، ومشاركتها في شؤونها الاجتماعية، والدخول في مجتمعاتها، ومشاركتها في عبادتها، وفي الصالح من عوائدها، فبذلك تحصل الثقة منها، وتنقاد لكل ما نريده منها، وبذلك يسهل علىٰ المثقف أداء واجبه علىٰ أكمل وجه، وثقة الأمة بالمثقفين هي رأس المال في هذا الباب.

أما الواجب في حدِّ ذاته فهو في الجملة: إيصال النفع والخير إلىٰ الأمة، ورفع الأمية والجهل عنها، وحثها علىٰ العمل، وتنفيرها من البطالة والكسل، وتصحيح فهمها للحياة، وتنظيف أفكارها وعقولها من التخريف، وتنظيم التعاون بين أفرادها، وتمتين الصلة والثقة بين العامة والخاصة منها، وتعليمهم معاني الخير والرحمة والإحسان لجميع الخلق.

هذه أمهات المعاني التي تجهلها الأمة، أو تغلط في

فهمها، وواجب المثقفين ـ بعد أن يستوثقوا منها بالمخالطة ـ أن يرفعوا عنها الجهل بها أو الغلط فيها.

وكيف يكون ذلك؟ يكون بتنزُّل المثقف في مخاطبة العامي، واستدراجه في كل اجتماع إلىٰ بيان ما يجهله أو يغلط فيه، ويتخير لذلك المناسبات وأوقات الفراغ، إذاً، لقاموا بالواجب، وأوصلوا للعامي خيرًا ما بعده خير، وأحسنوا إليه إحساناً يستحقه.

انتهى كلام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالىٰ.

القسوة في تتبع زلل الداعية وطالب العلم

قد يواجه الداعية وطالب العلم ـ وبخاصة صاحب المؤلفات ـ نكران بعض الناس لعمله، وتحيُّنهم الفرص لخطئه وزلَلِه، وعدم سلوكهم معه أدب العلم في المناصحة والتوجيه، وهذا الأمر عانى منه عدد من العلماء السابقين رحمهم الله، ونذكر هنا ما وجده الشيخ الإمام إبراهيم بن عمر البِقاعي صاحب التفسير المشهور (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، فقد ذكر معاناته من هذا الأمر في استفتاحه لمقدمة كتابه (مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّوَرِ) فتكلم عن حسد بعض المعاصرين له في تأليفه كتابه العظيم: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، فجعل مقدمة هذا الكتاب في الحديث عن رجوع العالم عن خطئه إذا تبين له ذلك، وعن أهمية المناصحة بالحق، في كلام طويل جداً ننقل منه هنا بعض المواضع.

فبعد أن وصف كتابه (نظم الدرر) وما لقي من ثناء من العلماء المعاصرين، قال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

نعم، ولقد انتدب لهذا الكتاب البديع، والديوان العلي الرفيع: أقوام من الأغبياء، والأساة القساة الأعتياء، لا يفهمون معانيه، ولا يدركون قواعده ومبانيه، ذكروا أنهم ظفروا فيه بما

(١) مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور (١/ ١٠٣-١٠٧).

لا يليق، فأخذوا يشنعون عليه، ويصوبون بالطعن إليه، وقسموا فيه الأقوال، وفرَّقوا وجوه الانتحال، ولم يذكروا شيئاً من محاسنه المحققة، ومعاليه العَجِبَة المونقة، التي هي بالنسبة إلىٰ ما رأوا وأثبتوا له النقص علىٰ ما ادعوا، كالبحر بالنسبة إلىٰ صغير القطر.

فكانوا كالذين يتبعون المتشابه، ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله.

علىٰ أن من الأمر المشهور الذي لم يخف علىٰ أحد، أن الإمام مالكاً رَحِمَهُ اللَّهُ قال: كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك، إلا صاحب هذا القبر، يعني: النبي ﷺ[(١)]، وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ: صنَفتُ هذه الكتب، وما آلوت فيها جُهداً، وإني لأعلم أن فيها الخطأ، لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّساء][(٢)].

فكلام هذين الإمامين يدل علىٰ أن وجود الخطأ للمُصَنِف، لا يوجب ترك تصنيفه، ولا الغضَّ عنه، لا سيما إن كان مشهوراً بالدين، غير مغموص عليه ولا مرتاب فيه.

اللهم إلا أن يكون الأمر الذي فيه أخْذٌ عليه أمراً محققاً لا جواب عنه، ويُعرَّف به ولا يرجع عنه، ولا يحتج له بشيء

(١) نسبة هذا القول إلىٰ الإمام مالك هي المشهورة عند المتأخرين، ولم أجده مسنداً، وذكره ابن عبدالهادي في كتابه إرشاد السالك في مناقب الإمام مالك (٤٠٢) صح عنه قوله فذكره، وقد روي هذا القول عن الحكم بن عتيبة ومجاهد رواها بسنده ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق في ترجمة الشافعي بسنده إليه (٥١/ ٣٦٥).

يقبل، وقل أن يُرى مصنِّف إلا وهو يقول:

وإن تجد عيباً فسد الخللا فجلَّ من لا عيب فيه وعلا

أو معنى ذلك.

وبعضهم يأذن في إصلاح الخطأ من كتابه للعالم المتحري، بعد التوقف والتثبت.

وأنا لم أدَّع العصمة فيما قلت، وما تركت أحداً ممن يلم بي، إلا قلت له: المراد: الوقوف علىٰ الحق من معاني كتاب الله تعالىٰ، والمساعدة علىٰ ما ينفع أهل الإسلام، فمن وجد لي خطأ، فليخبرني به لأصلحه، ووالله الذي جلَّت قدرته، وتعالت عظمته، لو أن لي سعة تقوم بما أريد، لكنت أبذل مالًا لمن ينبهني علىٰ خطأي، فكلما نبهني أحد علىٰ خطأ، أعطيته ديناراً.

ولقد نبهني غير واحد علىٰ أشياء فيه فأصلحتها، وكنت أدعو لهم، وأثني عليهم، وأقول لهم هذا الكلام، ترغيباً في المعاودة إلىٰ الانتقاد، والاجتهاد في الإسعاف بذلك والإسعاد.

فكان طريق هؤلاء ـ لو أن كلامهم كان عن بصيرة، وكان للهِ بقصد النصيحة ـ أن يأتوا إليَّ، أو يرسلوا، لينظروا ما عندي في ذلك الذي ذكروه: هل أبدي لهم، أو لذكري إياه معنى صحيحاً، أو اعترف بالخطأ، فإن أصلحته كنا قد تعاونا علىٰ البر والتقوى، وإن أبقيته، وجب الطعن حينئذ عليَّ حسب ما يستحقه ذلك المعنى.

وحيث لم يفعلوا ذلك، كان طعنهم، إما عن جهل، لأن من جهل شيئاً عاداه:

وكم من عائب معنى صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وإما عن حسد لمن لا يحاسدهم، فصنيعهم صنيع من يريد التشنيع علىٰ رجل مسلم، مقبل علىٰ ما يعنيه، تارك لما لا يعنيه، منقطع إلىٰ الله تعالىٰ في بيت من بيوته، يتلو كتابه، ويقيم الصلاة، وينفق مما رزقه الله سراً وعلانية، وقد قنع بما آتاه الله، ما زاحم أحداً منهم قط علىٰ دنيا، ولا ألحَّ علىٰ أحد في سؤال، ولا تصدى لعلو في الأرض، وأحواله في ذلك معروفة من أربعين سنة، فأكثرَ والشباب مقبل، والزمان غض، والأمل فسيح، وما ليَ من ذنب عندهم، إلا اعتزالي عنهم، وعدم مشاحنتهم في دنياهمْ، ورضائي بما قسم الله، ومحبتي لإِظهار الفائدة فيهم، وشمول الفضل لهم.

فما أجدرهم بما أجاب به ابن عباس رضي الله عنهما بعض من صنع به هذا الصنيع.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب "فضائل القرآن" حدثنا يزيد ـ يعني ابن هارون ـ عن كَهمَس بن الحسن، عن عبدالله بن بريدة قال: شتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له رضي الله عنه: أما إنك تشتمني وفيَّ ثلاث خصال: إني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدِل فأفرح، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً، وإني لأسمع بالغيث يصيب البلد من بلدان المسلمين فأفرح، وما ليَ به من سائمة، وإني لآتي الآية من كتاب الله، فأود أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم[(١)]، وهو عند البيهقي ـ أيضاً ـ من هذا الوجه[(٢)].

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام باب فضل علم القرآن والسعي في طلبه (١٠٢).
(٢) رواه في شعب الإيمان: أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه (١٠٦٢٤).

ولا ريب عند من له أدقُّ إنصافٍ أن من شنَّع علىٰ من هذا حالُه، فقد عرض نفسه للمقت من الله، واللعن والدعاء بالهلاك من خُلَّص عباد الله، علىٰ مدى الأعصار، في كل ارتحال وقرار...

إلىٰ آخر كلام البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ، مما يعد عزاء لما يجده الداعية وطالب العلم من سوء تعامل من بعض الناس، تجاه ما قدَّمه من علم أو دعوة، وعدم سلوك الناس معه مسلك المناصحة، ليرجع عن الخطأ إلىٰ الحق.

الرجوع عن الخطأ من تمام عقل العالم

عقد الشيخ حمود بن عبدالله التويجري فصلاً في كتابه **(تغليظ الملام علىٰ المتسرعين إلىٰ الفتيا وتغيير الأحكام)**، في أهمية رجوع العالم إلىٰ الحق إذا بُيِّن له، وأن ذلك من تمام عقل العالم وعلمه.

فقال رحمه الله تعالىٰ[1]: وإذا عُلم أن زلَّات العلماء من هوادم الإسلام، وأنه يجب اجتنابها والتَّحذير منها؛ فليُعلم أيضاً أن من أعظم زلَّات العلماء وأشدها خطراً علىٰ المفتين والمستفتين: ما يكون مبنياً علىٰ الآراء المخالفة للكتاب والسنة، وما أكثر الواقعين في ذلك في زماننا!

وبعض هؤلاء إذا نُبِّهوا علىٰ أخطائهم المخالفة للأدلَّة الصريحة من الكتاب والسنة؛ لم يرجعوا إلىٰ الحق، ولم يبالوا بالإصرار علىٰ الخطأ، ولا شك أن هؤلاء قد تعرَّضوا للوعيد علىٰ الإصرار علىٰ الأفعال السيئة، وهو ما جاء في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: أنه قال وهو علىٰ المنبر: «**ويل للمصرِّين، الذين يصرُّون علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون**»، رواه الإمام أحمد وعبد بن حميد، وإسناد كل منهما

(١) تغليظ الملام علىٰ المتسرعين للفتيا وتغيير الأحكام لحمود التويجري (٤٠-٤٣).

جيد، ورواه أيضاً البخاري في «الأدب المفرد»[١].

وقد قال البيهقي في «السنن الكبرى»: «باب: من اجتهد ثم رأى أن اجتهاده خالف نصاً أو إجماعاً أو ما في معناه؛ ردَّه علىٰ نفسه وعلىٰ غيره»[٢].

ثم روى حديث عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو رد**»، رواه البخاري في الصحيح ومسلم[٣].

وروى أيضاً عن سفيان عن إدريس الأودي؛ قال: أخرج إلينا سعيد ابن أبي بردة كتاباً، فقال هذا كتاب عمر إلىٰ أبي موسى رضي الله عنهما: أما بعد؛ لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت الحق؛ فإن الحق قديم، لا يُبطل الحقَّ شيء، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل.

قال البيهقي: ورواه أحمد بن حنبل وغيره عن سفيان، وقالوا في الحديث: «لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك وهُديتَ فيه لرشدك أن تراجع الحق؛ فإن الحقَّ قديم، وإن الحقَّ لا يُبطله شيء، ومراجعة الحق خيرٌ من التَّمادي في الباطل».

---

(١) مسند الإمام احمد (٦٥٤١) والمنتخب من مسند عبد بن حميد (٣٢٠)، والأدب المفرد للبخاري باب رحمة البهائم (٣٨٠).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي كتاب آداب القاضي (١٠/ ٢٠٤) وجميع ما سيذكره المؤلف هنا هي أحاديث هذا الباب.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلح باب إذا اصطلحوا علىٰ صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧) ومسلم في الصحيح كتاب الأقضية باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

وروى أيضا من طريق ابن وهب؛ قال: حدثني مالك عن يحيى بن سعيد وربيعه بن عبد الرحمن؛ قالا: كان عمر بن عبدالعزيز يقول: (ما من طينة أهون عليَّ فكاً، وما من كتاب أيسر عليَّ ردّاً؛ من كتابٍ قضيتُ به، ثم أبصرتُ أنَّ الحقَّ في غيره، ففسخته)[1].

فليتأمل المصرون علىٰ الأخطاء في الفتيا ما جاء عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحث علىٰ مراجعة الحق إذا تبيَّن، وقوله: «إن مراجعة الحق خير من التَّمادي في الباطل».

وليتأملوا أيضاً ما ثبت عنه من الرجوع إلىٰ قول المرأة في جواز الإكثار من الصداق، واعترافه بإصابة المرأة وخطئه، وهذا من تواضعه وإنصافه من نفسه وتلقيه للحق ممَّن جاء به من ذكر أو أنثى، وتعظيمه لما جاء عن الله تعالىٰ.

وهذا بخلاف حال بعض المفتين في زماننا؛ فإنهم يأنفون من الرجوع عن أخطائهم في الفتاوى، ويرون في ذلك غضاضة عليهم، وهذا أمرٌ خطيرٌ جدّاً، ويخشى علىٰ فاعله أن يُصاب بالزيغ والضلال؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّف: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القَصَص]

فليحذر المصرُّون علىٰ أخطائهم في الفتيا من الدخول في عموم هاتين الآيتين.

---

(١) كل ما سبق ذكره البيهقي في السنن الكبرى كتاب آداب القاضي باب من اجتهد ثم رأى أن اجتهاده خالف نصاً أو إجماعاً أو ما في معناه؛ ردَّه علىٰ نفسه وعلىٰ غيره (٢٠٣٧٢-٢٠٣٧٣).

ويجب علىٰ المفتين وغيرهم: أن يعملوا بقول عمر رضي الله عنه في مراجعة الحق إذا تبيَّن، وترك التمادي في الباطل، ويجب عليهم أيضاً: أن يقتدوا به في تواضعه وقبوله للحق ممَّن جاء به، واعترافه بخطئه وصواب المرأة التي عارضته بما جاء في القرآن.

والدليل علىٰ وجوب الأخذ بقول عمر رضي الله عنه، والاقتداء بما فعله مع المرأة التي عارضته، قول النبي ﷺ: «**اقتدوا باللَّذين من بعدي: أبي بكر وعمر**»، رواه: الإمام أحمد، والترمذي، وغيرهم بسند صحيح[(١)].

وليتأمل الذين يأنفون من الرجوع عن أخطائهم في الفتيا؛ ما ثبت عن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، من استهانته برد ما خالف الحق وفسخه له، وأن ذلك يسيرٌ عليه، وليقتدوا به في ذلك؛ فإنه من أئمة الهدى؛ كما وصفه بذلك ابن سيرين، وقال الإمام أحمد: «إن قوله حجة»؛ ذكره ابن كثير وغيره[(٢)].

ثم عقد الشيخ حمود فصلاً في ذكر قصص المتَّصفين من السلف بالإنصاف والرجوع إلىٰ الحق والاعتراف بالخطأ، فقال[(٣)]:

فمن ذلك ما رواه ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» عن محمد بن كعب القرظي؛ قال: سأل رجلٌ عليّاً رضي الله عنه

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣٢٧٦) والجامع للترمذي أبواب المناقب باب (٣٦٦٢).
(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير في بداية ترجمته لعمر بن عبدالعزيز (٩/ ٢١٧).
(٣) تغليظ الملام علىٰ المتسرعين للفتيا وتغيير الأحكام لحمود التويجري (٤٤-٤٧) بتصرف.

عن مسألة؟ فقال فيها، فقال الرجل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين! ولكنْ كذا وكذا، فقال عليٌّ رضي الله عنه: أصبت وأخطأت، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يُوسُف][(١)].

ومن ذلك ما ذكره ابن عبد البر عن سفيان بن عيينة عن ابن أبي حسين؛ قال: اختلف ابن عباس وزيد بن ثابت في الحائض تنفر؟ فقال زيد: لا تنفر حتىٰ يكون آخر عهدها الطواف بالبيت، فقال ابن عباس لزيد: سَلْ نُسَيَّاتك ـ يعنى نساءك ـ أم سليمان وصويحباتها، فذهب زيد، فسألهنَّ، ثم جاء وهو يضحك، فقال: القولُ ما قلت[(٢)].

ومن ذلك ما رواه ابن عبد البر أيضاً عن عبد الرحمن بن مهدي؛ قال: «ذاكراتُ عبيد الله بن الحسن القاضي بحديث وهو يومئذٍ قاضٍ، فخالفني فيه، فدخلتُ عليه وعنده الناس سماطين، فقال لي: ذلك الحديث كما قلتَ أنتَ، وأرجع أنا صاغراً[(٣)].

ثم قال: ما أعظم الفرق بين ما فعله هؤلاء العلماء لما نُبِّهوا علىٰ خطئهم وبين أفعال بعض المنتسبين إلىٰ العلم في زماننا؛ فإن بعضهم إذا نبَّهه بعض العلماء علىٰ خطئه؛ اشمأزَّ، وتحامل علىٰ الذي نبَّهه، ورماه بالجهل والتعصب، وغير ذلك مما يرى أنه يشينه، ولا شكَّ أنَّ هذا من الكبر الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»[(٤)].

انتهى كلام الشيخ حمود التويجري رحمه الله.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله فصل في الإنصاف في العلم (٨٦٥).
(٢) المرجع السابق (٨٦٧).
(٣) المرجع السابق (٨٧٧).
(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (١٤٧).

اللهم اجعلنا هداة مهتدين

من الأدعية التي كان يقولها النبي ﷺ، ما رواه عطاء بن السائب عن أبيه قال: صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها، فقال له بعض القوم: لقد خففت وأوجزت الصلاة، فقال: أما عليَّ ذلك، لقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ، فلما قام تبعه رجل من القوم، فسأله عن الدعاء، ثم جاء فأخبر به القوم: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك علىٰ الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضى والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»، رواه النسائي وغيره وجاء في رواية «**واجعلنا هداة مهديين**»[(١)].

أفضل ما ينبغي للداعي إلىٰ الله والعالم وطالب العلم هو أن يتصف بصفات العلم والدعوة، وأن يكونا لباساً له في الظاهر

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى كتاب المساجد (١٢٢٩) ورواه الحاكم في المستدرك كتاب الدعاء والتهليل والتكبير (١٩٢٣) وقال صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ (٣/ ١٠٠٣)، ورواية «مهديين» رواها الإمام أحمد في المسند (١٨٣٢٥).

والباطن، وهو مصداق الدعاء الوارد في آخر الحديث (اللهم زيِّنا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهديين)، وقد شرح الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الدعاء في رسالة مستقلة، ومما ذكره في شرحه لهاتين العبارتين، حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]:

قوله ﷺ: «**اللهم زيِّنا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهديين**»، أما زينة الإيمان، فالإيمان قول وعمل ونية، فزينة الإيمان تشمل زينة القلب بتحقق الإيمان له، وزينة اللسان بأقوال الإيمان، وزينة الجوارح بأعمال الإيمان، وقد سمَّى الله تعالىٰ التقوى لباس، وأخبر أنها خير من لباس الأبدان، قال تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وقال وهب بن منبه: أوحى الله تعالىٰ إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**يا عيسى، تزيَّن لي بالدين، وأحب المساكين**».

وعنه أن الله تعالىٰ لما بعث موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قال لهما: «**إِنَّمَا يتزين لي أوليائي بالذكر والخشوع، والخوف والتقوى، تنبت في قلوبهم، فتظهر عَلَى أجسادهم، فهي ثيابهم التي يلبسون، ودثارهم الَّذِي يظهرون، وضميرهم الَّذِي يستشعرون، ونجاتهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الَّذِي إياه يأملون، ومجدهم الَّذِي به يفتخرون، وسيماهم التي بها يعرفون**».

قال الحسن في قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جميل يُحِبُّ الجمال**»[(٢)]، قال: يحب أن يُتَجَمَّلَ له بالطاعة، وعنه قال: «إِنَّ لباس المؤمن التقوى، وزينته الحياء».

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب: شرح حديث عمار بن يسار (١/ ١٨٣-١٨٦).
(٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (١٤٧).

فالزينة النافعة الدائمة الباقية هي زينة الإيمان والتقوى، إذا شملت القلب والجوارح، فإن أظهَرَ التزيين بذلك ظاهرًا وقلبه فارغ، عاد ذلك عليه شينًا، كما قال بعضهم: من تزيَّن للناس بما يعلم الله منه خلافه شانه الله ﷻ، وقال بعضهم لمن أظهر التزين بالعلم من غير عمل به: تزيَّنوا بما شئتم، فلن يزيدكم الله إلا اتضاعًا.

وقال بعضهم: لا تقوم الساعة حتىٰ يتزيَّن الرجل بالعلم، كما يتزيَّن الرجل بثوبه، يعني: يظهره للناس تزيُّنًا به عندهم، من غير أن يُزيِّن قلبه وجوارحه بالعمل به، وكان الفضيل يقول: تزيَّنت لهم بالصوف فلم ترهم يرفعون بك رأسًا، تزينت لهم بالقرآن، ولم تزل تتزين لهم بشيء بعد شيء، كل ذلك لحب الدُّنْيَا.

ومراده: توبيخ من يُزيِّن ظاهره بالأعمال، وباطنه خالٍ منها.

ومن زيَّن لله جوارحَه بالأعمال وقلبه بحقيقة الإيمان، زيَّنه الله في الدُّنْيَا والآخرة، كما في الحديث: «**إِنَّ اللهَ تعالىٰ لَا يَنْظُر إِلَى صُوَرِكمْ وَأَمْوَالِكمْ وَإِنَّمَا يَنظرُ إِلَى قلُوبِكمْ وَأَعْمالكمْ**»[(١)]، فمن علم اللهُ من قلبه الصدق زيَّنه الله عند عباده، وبالعكس.

وما أحسن قول أبي العتاهية:

إذا المرء لم يلبس ثيابًا من التقى تقلَّب عُريانًا وإن كان كاسياً

وقوله ﷺ: «**واجعلنا هداة مهتدين**»: يعني نهدي غيرَنا ونهتدي في أنفسنا، هذه أفضل الدرجات: أن يكون العبد هاديًا مهديًّا، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبيَاء: ٧٣].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله (٢٥٦٤).

وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لَإِنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بك رجلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لكَ مِنْ حُمْرُ النَّعَمِ**»(١)، وقال: «من دعى إِلَى هدًى كان له مثل أجر من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»(٢).

ويدخل فيمن دعا إِلَى الهدى من دعا إِلَى التوحيد من الشرك، وإلىٰ السنة من البدعة، وإلىٰ العِلْم من الجهل، وإلىٰ الطاعة من المعصية، وإلىٰ اليقظة من الغفلة، فمن استجيب له إِلَى شيء من هذه الدعوات فله مثل أجر من تبعه.

فأفضل الصدقة تعليم جاهل، أو إيقاظ غافل، وما وُصِلَ المستثقل في نوم الغفلة بأفضل من ضربه بسياط الموعظة ليستيقظ.

والمواعظ كالسياط تقع عَلَى نياط القلوب، فمن آلمته فصاح فلا جناح، ومن تراد بها ألمه فمات فدمه مباح.

وعظَ عبدُ الواحد بن زيد يومًا فصاح به رجل: يا أبا عبيدة، كُفَّ فقد كشفت الموعظة قناع قلبي؛ فتمادى عبد الواحد في وعظه فمات الرجل، انتهى كلام ابن رجب رحمه الله.

ولما شرح الإمام ابن القيم هذا الحديث في كتابه **(إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)** قال(٣): ولما كان كمال العبد في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد باب دعاء النبي ﷺ الناس إلىٰ الإسلام والنبوة (٢٩٤٢) ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلىٰ هدى أو ضلالة (٢٦٧٤).

(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (١/ ٢٨).

أن يكون عالماً بالحق، متبعاً له، معلماً لغيره، مرشداً له، قال: (واجعلنا هداة مهتدين).

وقال الصنعاني في شرحه لهذا الدعاء في كتابه **(التنوير في شرح الجامع الصغير)**[١]: (واجعلنا هداة) لغيرنا، لننال أجر الهادين للأنام (مهديين) في أنفسنا.

وقال المباركفوري في شرحه لهذا الدعاء في مرعاة المفاتيح[٢]: (زيِّنا بزينة الإيمان) أي بثباته وتوفيق الطاعة وحيلة الإحسان، قال المناوي: وهي زينة الباطن، ولا معول إلا عليها، لأن الزينة زينتان: زينة البدن وزينة القلب، وهي أعظمها قدرًا، وإذا حصلت: حصلت زينة البدن علىٰ أكمل وجه في العقبى، ولما كان كمال العبد في كونه عالمًا بالحق متبعًا له معلمًا لغيره قال: (واجعلنا هداة) جمع هاد، أي هادين إلىٰ الدين، (مهتدين) أي ثابتين علىٰ الهداية وطريق اليقين، قال الطيبي: وصف الهداة بالمهتدين لأن الهادي إذا لم يكن مهتديًا في نفسه؛ لم يصلح أن يكون هاديًا لغيره، لأنه يوقع الناس في الضلال من حيث لا يشعر، ومن حيث لا يشعرون، انتهى كلامه.

فجدير بكل مؤمن وبخاصة طالب العلم والداعية أن يواظب علىٰ هذا الدعاء الجامع، في الصلاة كما ورد في هذا الحديث، أو في غيرها، فقد كان العلماء يختمون نصائحهم ورسائلهم بهذا الدعاء، فاللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين.

(١) التنوير في شرح الجامع الصغير للصنعاني (٣/ ١٦٦).
(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعبيدالله المباركفوري (٨/ ٢٨٠).

نصيحة للدعاة والمرشدين

من العلماء الذين كان لهم أثر في توجيه طلبة العلم والدعاة في هذه البلاد (المملكة العربية السعودية): الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مفتي الديار السعودية في وقته، ومن آثاره التي تركها: نصيحة جامعة وجهها في موسم حج عام ١٣٧٤هـ، خَصَّ بها الدعاة والمرشدين ومن يريد الكلام عن أمور الشريعة، وما هي الأمور التي ينبغي أن يبدأ بها في دعوته، وماذا يقدم، فقال رحمه الله تعالىٰ[(١)]:

أُوجه خطابي هذا إلىٰ كافة المسلمين من حجاج بيت الله الحرام وغيرهم، نصيحة لهم، وبراءة للذمة، ورجاء أَن ينتبهوا من غفلتهم ويستيقظوا من رقدتهم، ويصير أكبر همهم وجُلُّ بحوثهم، وعامة كتاباتهم وإرشاداتهم حول تحقيق معرفة ما هم إليه أَشد شيء ضرورة، من بيان حقيقة ما بعث الله به رسوله ﷺ، بل ضرورتهم إلىٰ ذلك أَعظم من ضرورتهم إلىٰ الطعام والشراب، بل أَعظم وأَكبر من ضرورتهم إلىٰ النفس، فإن المتكلمين من الكُتَّاب والمرشدين وسواهم ممن يُلِمُّ بجنس هذه الأمور قد اختلفت وجهتهم، وافترقت مغازيهم في كتاباتهم

(١) التنوير في شرح الجامع الصغير للصنعاني (٣/ ١٦٦).

وإرشاداتهم، وذلك بحسب اختلاف وافتراق ما يدور في أَفكارهم، ويستقر في تصوراتهم، ويحسن في أَنظارهم من حيث المهمات والأَهميات، لا فرق في ذلك بين المتكلم والمرشد الديني، والمتكلم خلافه.

وأَجد من يتكلم عن الأمور الدينية أَكثرهم أَو كلهم إلا من شاء الله لا يكتبون ولا يرشدون إلا في أُمور هي في الحقيقة من الفروع والمكملات، فتجد الكاتب وتجد المرشد لا يتكلم إلا حول فرضية الصلاة مثلاً، ووجوب فعلها في جماعة، أَو الحج، أَو صيام رمضان، أَو الزكاة وأَشباه ذلك، أَو في أَشياء من المحرمات كالربا والتعدي علىٰ الأَنفس والأَموال والأَعراض، وغير ذلك من المعاصي والمخالفات، ونِعمَ ما فعلوا، وحَسُنَ طريقًا ما سلكوا، ولكنهم كانوا عن أَهم الأَهم في بُعدٍ إلىٰ الغاية، فقد كان خير الخلق محمد رسول الله ﷺ في أَول بعثته ومبدأ دعوته يبدأُ بالأَهم فالأَهم، وأَقام ﷺ بمكة عشر سنوات من بعثته قبل فرض الصلاة التي هي عمود الإسلام وما بعدها من الأركان، كل ذلك في بيان التوحيد والدعوة إليه، وبيان الشرك وتهجينه والتحذير منه.

وأَول سورة أُنزلت عليه ﷺ في رسالته سورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ [المدَّثِّر]، وكان ﷺ يسلك في الإنذار عن الشرك والدعوة إلىٰ التوحيد شتى الطرق، ويسعى في حثِّه الناس، لإبلاغهم ذلك بكل ما يمكنه، حتىٰ إنه مرة صعد علىٰ الصفا ﷺ رافعًا صوته: واصباحاه!! فلما اجتمعوا إليه

قال: يا أَيها الناس إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد[(١)].

فحقيق بالمسلمين ولا سيما العلماء أن يجعلوا كبير عنايتهم ومزيد اهتمامهم بمعرفة حقيقة ما بعث الله به الرسل، من أَولهم إلىٰ آخرهم وخاتمهم محمد رسول الله ﷺ وعليهم أَجمعين، وتعليمهم ذلك، والعمل به ظاهرًا وباطنًا، والموالاة والمحبة والتناصح فيه، والتواصي به: من توحيد الله تبارك وتعالىٰ، في ربوبيته وفي ذاته تبارك وتعالىٰ، وأَسمائه وصفاته وأَفعاله، وفي إلهيته وما يستحق من عبادته وحده لا شريك له، وأَنه ما في العالم عُلويِّه وسُفليِّه من ذات، أَو صفة أَو حركة أَو سكون، إلا الله خالقه لا خالق غيره ولا رب سواه، وأَن يُوحَّد ﷻ في ذاته وأَسمائه وصفاته وأَفعاله، بأَن يؤمن أَنه تعالىٰ واحدٌ أَحدٌ فردٌ صمدٌ، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأَنه حيٌّ قيومٌ، علىٰ كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، وأَنه تبارك وتعالىٰ سميع بصير، يرضى، ويسخط، ويحِب، وَيُحَب، إلىٰ غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من أَسمائه وصفاته تبارك وتعالىٰ، فنثبت كل ما ورد في الكتاب والسنة من هذا الباب، إثباتًا بريئًا من تشبيه المشبهين، كما ننزهه تبارك وتعالىٰ عن جميع ما لا يليق بجلاله وعظمته، تنزيهًا بريئًا من تعطيل المعطلين.

وأَن يوحد تبارك وتعالىٰ في أُلوهيته، بأَن يفرد بجميع أَنواع العبادة، فلا يعبد إلا إياه، ولا يدعى أَحد سواه، ولا يُسجَد إلا له، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يستعان ولا

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن باب ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المَسَد] (٤٩٧٢).

يستغاث إلا به، ولا ينحَر ولا ينذَر إلا له، ولا يخشى ولا يخاف أَحدٌ سواه، ولا يرجى إلا إياه، حتىٰ يكون ﷻ هو المفزع في المهمات، والملجأ في الضرورات، ومحط رحل أَرباب الحاجات في الرغبات والرهبات، وفي جميع الحالات، فهذا هو مضمون أَصل الدين وأَساسه المتين: شهادة أَن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأَصله الثاني: شهادة أَن محمدًا رسول الله ﷺ، نطقًا واعتقادًا وعملاً، وهو طاعته فيما أَمر، وتصديقه في جميع ما أَخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأَن لا يعبد الرب تبارك وتعالىٰ إلا بما شرعه رسوله محمد ﷺ، وأَن تُقدَّم محبته ﷺ علىٰ النفس والولد والوالد والناس أَجمعين، وأَن يُحكَّم ﷺ في القليل والكثير، والنقير والقطمير، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء]، وقال ﷺ: «**لا يُؤمِن أَحَدُكمْ حَتَّى يَكوْنَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئتُ بِهِ**»(١).

ومن المهم جدًا اتصال المسلمين بعضهم ببعض اتصالاً خاصًا، وأَن يتذاكر بعضهم مع بعض في هذه الأُصول العظيمة، وأَن يبذلوا جميعًا غاية جهودهم ونهاية قدرهم في البحث الدقيق في تفاصيلها، ويحرصوا كل الحرص في تطبيق اعتقاداتهم ومساعيهم وأَعمالهم عليها، وأَن يتبادلوا النصائح الصادقة فيما بينهم، وأَن يعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا، وأَن يكونوا شيئًا واحدًا في العمل بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، يدًا واحدة

(١) سبق الكلام عن تخريجه.

في الذب عن حوزة الدين، ومناوأة أعدائه من الكفار والمشركين، فإن الأخذ بذلك هو سبب السعادة والسيادة والفوز والنجاة في الدنيا والآخرة، وفي الحديث: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم**»[(١)]، وصلى الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، انتهى كلام الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد باب النهي عن الإسراف في المال (٤٤٢) وابن حبان في صحيحه كتاب الزكاة باب المسألة والأخذ وما يتعلق به من المكافأة (٢٢٧٩).

أسباب التعصب للرأي الباطل

من الكتب المهمة لطالب العلم كتاب **(أدب الطلب ومنتهى الأرب)** للإمام محمد بن علي الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد اشتمل علىٰ أخلاق وآداب طالب العلم وصفات الداعي إلىٰ الله تعالىٰ، ومن جملة ما اشتمل عليه ذلك الكتاب الماتع: أنه عقد فصلاً في الأسباب التي تؤدي إلىٰ البعد عن الحق والتعصب للرأي، نذكر منها هنا عدة أسباب، حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ[١]:

ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها تركَ الإنصاف ويصدرُ عنها البعدَ عن الحق وكتمَ الحجة وعدمِ ما أوجبه الله من البيان: **حبُّ الشرف والمال**، اللذين هما أعدىٰ علىٰ الإنسان من ذئبين ضاريين، كما وصف ذلك رسول الله ﷺ[٢]، فإن هذا هو السبب الذي حرَّف به أهلُ الكتاب كتبَ الله المنزلة علىٰ رسله، وكتموا ما جاءهم فيها من البينات والهدى، كما وقع من أحبار اليهود، وقد أخبرنا الله بذلك في كتابه العزيز، وأخبرنا به رسول الله ﷺ في الثابت عنه في الصحيح.

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب (٥٤).

(٢) كما ورد ذلك في الحديث المروي عن كعب بن مالك الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه**» رواه الترمذي في الجامع في أبواب الزهد (٢٣٧٦) والدارمي في السنن كتاب الرقاق باب ما ذئبان جائعان (٢٧٧٢) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٣٧٦).

وبهذا السبب بقيَ من بقيَ علىٰ الكفر من العرب وغيرهم، بعد قيام الحجة عليهم وظهور الحق لهم، وبه نافقَ من نافقَ.

ووقع في الإسلام من أهل العلم بذلك السببِ عجائبُ، مودعةٌ بطون كتب التاريخ، وكم من عالمٍ قد مال إلىٰ هوى ملكٍ من الملوك، فوافقه علىٰ ما يريد، وحسَّن له ما يخالف الشرع، وتظهَّر له بما يَنْفُقُ لديه من المذاهب، بل قد وضع بعض المحدِّثين للملوك أحاديث عن رسول الله ﷺ، كما وقع من وهب بن وهب أبو البختري مع الرشيد.

ووقع من آخرَ في حديث: «**لا سَبْقَ إلا في خُفٍّ أو حافر أو نَصْلٍ**»[1] فزاد في الحديث: «**أو جَناحٍ**» موافقة للملك الذي رآه يلعب بالحَمَام، ويسابق بينها.

ووضع جماعة مناقب لقوم، وآخرون مثالب لآخرين، لا حامل لهم علىٰ ذلك إلا حبُّ الدنيا، والطمعُ في الحطام، والتقربُ إلىٰ أهل الرئاسة، بما يَنْفُقُ لديهم، ويروجُ عليهم، نسأل الله الهداية والحماية من الغواية.

وكم قد سمعنا ورأينا في عصرنا من أهله، فكثيراً ما نرى الرجل يعتقد في نفسه اعتقاداً يوافق الحق ويطابق الصواب، فإذا تكلم عند من يخالفه في ذلك، ويميل إلىٰ شيء من البدعة، فضلاً عن أن يكون من أهل الرئاسة، وممن بيده من الدنيا، فضلاً عن أن يكون من الملوك؛ وافَقَهُ وساعدَهُ وساندَهُ

(١) رواه بهذا اللفظ أبو داود في السنن كتاب الجهاد باب في السبق (٢٥٧٤)، والبيهقي في السنن الكبرى كتاب السبق باب لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل (١٩٧٤٧) ورواه غيرهما بألفاظ فيها تقديم وتأخير.

وعاضدَهُ، وأقلُّ الأحوال أن يكتم ما يعتقده من الحق، ويغمط ما قد تبين له من الصواب، عند من لا يُجوِّز منه ضرراً ولا يُقدِّر منه نفعاً، فكيف ممن عداه.

وهذا في الحقيقة من تأثير الدنيا علىٰ الدين، والعاجلة علىٰ الآجلة، وهو لو أمعن نظره، وتدبر ما وقع فيه، لعلم أن ميلَه إلىٰ هوى رجل أو رجلين أو ثلاثة أو أكثر، ممن يجاملهم في ذلك المجلس، ويكتم الحق مطابقة لهم، واستجلاباً لمودتهم، واستبقاء لما لديهم، وفراراً من نفورهم، هو من التقصير بجانب الحق، والتعظيم لجانب الباطل، فلولا أن هؤلاء النفر لديه أعظم من الرب سبحانه، لما مال إلىٰ هواهم، وترك ما يعلم أنه مراد الله سبحانه، ومطلبه من عباده.

وكفاك بهذه الفاقرة العظيمة والداهية الجسيمة، فإن رجلاً يكون عنده فرد من أفراد عباد الله أعظم قدراً من الله سبحانه، ليس بعد تجرئه علىٰ الله شيء، أرشدنا الله إلىٰ الحق بحوله وطوله.

وهكذا جرت عادة الله في عباده، فإنه لا ينال من أراد الدنيا بالدين إلا وبالاً وخسراناً، عاجلاً أم آجلاً، خصوصاً من كان من الحاملين لحجة الله، المأمورين بإبلاغها إلىٰ العباد، فإن خيره في الدنيا والآخرة مربوط بوقوفه علىٰ حدود الشريعة، فإن زاغ عنها زاغ عنه، وقد صرح الله سبحانه بما يفيد هذا في غير موضع من كتابه العزيز.

فأنت أيها الحامل للعلم: لا تزال بخيرٍ ما دمت قائماً بالحجة، مرشداً إليها، ناشراً لها، غير مستبدلٍ بها عَرضاً من

أعراض الدنيا، أو مرضاة من أهلها.

ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها تركَ الإنصاف وكتمَ الحق وغمطَ الصواب[١] **ما يقع بين أهل العلم من الجدال والمراء**:

فإن الرجل قد يكون له بصيرة وحسن إدراك، ومعرفة بالحق ورغوبٍ إليه، فيخطئ في المناظرة، ويحمله الهوى ومحبة الغَلَبِ، وطلب الظهور؛ علىٰ التصميم علىٰ مقاله، وتصحيح خطأه، وتقويم معوجه بالجدال والمراء.

وهذه الذريعة الإبليسية والدسيسة الشيطانية، قد وقع بها من وقع في مهاوٍ من التعصبات، ومزالق من التعسفات، عظيمة الخطر، مخوفة العاقبة.

وقد شاهدنا من هذا الجنس ما يقضي منه العجب، فإن بعض من يسلك هذا المسلك قد يجاوز ذلك، إلىٰ الحلف بالأيمان علىٰ حقيقة ما قاله، وصوابِ ما ذهب إليه، وكثيراً منهم يعترف بعد أن تذهب عنه سَورة الغضب، وتزول عنه نزوة الشيطان، بأنه فعل ذلك تعمداً، مع علمه بأن الذي قاله غيرَ صواب.

وقد وقع مع جماعة من السلف من هذا الجنس مالا يأتي عليه الحصر، وصار ذلك مذاهب تُروى، وأقوال تُحكى، كما يعرف ذلك من يعرف.

ومن الآفات المانعة عن الرجوع إلىٰ الحق[٢] **أن يكون المتكلم بالحق حَدَثَ السنِّ بالنسبة إلىٰ من يناظره، أو قليل**

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب (٥٨).
(٢) أدب الطلب ومنتهى الأرب (٩٠).

العلم أو الشهرة في الناس، والآخر بعكس ذلك.

فإنه قد تحمله حميةُ الجاهلية والعصبيةُ الشيطانية علىٰ التمسك بالباطل، أنَفَةً من الرجوع إلىٰ قول من هو أصغرُ منه سناً، أو أقلُّ منه علماً، أو أخفى شهرة، ظناً منه أن في ذلك عليه ما يحط منه، وينقص ما هو فيه.

وهذا الظن فاسد، فإن الحطَّ والنقص إنما هو في التصميم علىٰ الباطل، والعلو والشرف في الرجوع إلىٰ الحق، بِيدٍّ من كان، وعلىٰ أي وجهٍ حصل.

وبالجملة، فالأسباب المانعة من الإنصاف لا تخفى علىٰ الفَطِن، وفي بعضها دقة تحتاج إلىٰ تيقظ وتدبر، وتتفق في كثير من الحالات لأهل العلم والفهم والإنصاف.

انتهى كلام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإنك لعلى خلق عظيم

قال الشيخ عطية محمد سالم رَحِمَهُ اللَّهُ في تتمته لكتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، عند تفسيره لقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القَلَم][(١)]:

تقدم أن هذه الآية بمثابة الرد علىٰ ادعاء المشركين أولاً عليه ﷺ ورميه بالجنون، لأن أخلاق المجانين مذمومة، بل لا أخلاق لهم، وهنا أقصى مراتب العلو في الخلق.

وقد أكَّد هذا السياق بعوامل المؤكدات، باندراجه في جواب القَسَم الأول في أول السورة، وبإنَّ، وباللام في (لعلىٰ)، وجاء بعلىٰ الدالة علىٰ الاستعلاء والتمكن، بدلاً من (ذو) مثلاً: (ذو خلق عظيم)، لبيان قوة التمكن والاستعلاء، وأنه ﷺ فوق كل خلق عظيم، متمكن منه مستعل عليه.

وقد أجمل الخُلقَ العظيم هنا، وهو من أعمِّ ما امتدَحَ اللهُ به رسولَه ﷺ في كتابه، وقد أرشدت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلىٰ ما بيَّن هذا الإجمال، حينما سئلت عن خُلقه ﷺ الذي امتُدِحَ به، فقالت: «كان خلقه القرآن»[(٢)] تعني ـ والله تعالىٰ أعلم ـ: أنه ﷺ يأتمر

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي وتتمته لعطية محمد سالم (٨/ ٢٤٧-٢٥٢).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب جامع صلاة الليل، (٧٤٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن».

بأمره وينتهي بنواهيه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسرَاء: ٩].

وكما قال ﷺ: «**لن يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعا لما جئت به**»(١)، فكان هو ﷺ ممتثلاً لتعاليم القرآن في سيرته كلها، وقد أُمرنا بالتأسي به صلوات الله وسلامه عليه، فكان من أهم ما يجب علىٰ الأمة معرفة تفصيل هذا الإجمال، ليتم التأسي المطلوب.

وقد أجمل ﷺ البعثة كلها في مكارم الأخلاق، في قوله ﷺ: «**إنما بعثت: لأتمم مكارم الأخلاق**»(٢).

وقد عني أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله تعالىٰ عنهم بقضية أخلاقه بعد نزول هذه الآية، فسألوا عائشة رضي الله عنها عن ذلك فقالت: «كان خلقه القرآن»، وعني بها العلماء بالتأليف، كالشمائل للترمذي.

وإذا رجعنا إلىٰ بعض الآيات في القرآن نجد بعض البيان لما كان عليه ﷺ من عظيم الخلق، مثل قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ

(١) سبق الكلام عن تخريجه.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد باب حسن الخلق (٢٧٣) والإمام أحمد في المسند (٨٩٥٢) والحاكم في المستدرك (٤٢٢١) وقال: حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومثل ذلك من الآيات التي فيها التوجيه أو الوصف بما هو أعظم الأخلاق، وإذا كان خلقه ﷺ هو القرآن، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم.

والمتأمل للقرآن في هديه يجد مبدأ الأخلاق في كل تشريع فيه حتىٰ العبادات، ففي الصلاة خشوع وخضوع وسكينة ووقار، «**فأتوها وعليكم السكينة والوقار**»(١).

وفي الزكاة مروءة وكرم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان].

وفي الصيام: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»(٢)، وقوله ﷺ: «**الصيام جنة**»(٣).

وفي الحج: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧]، إلىٰ غير ذلك من التعاليم العامة والخاصة التي اشتمل عليها القرآن.

وقد عني ﷺ بالأخلاق، حتىٰ كان يوصي بها المبعوثين في كل مكان، كما أوصى معاذَ بن جبل رضي الله عنه بقوله: «**اتق الله حيثما**

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه بهذا اللفظ في كتاب الإمامة في الصلاة باب المسبوق بوتر من صلاة الإمام (١٦٤٦) والطبراني في المعجم الأوسط (٤٤٠٦).
(٢) رواه البخاري في صحيحه باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم (١٩٠٣).
(٣) رواه البخاري في صحيحه باب فضل الصوم (١٨٩٤).

كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[(١)].

وقال ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة: إذا لم تستح فاصنع ما تشاء**»[(٢)]، أي: إن الحياء وهو من أخص الأخلاق سياج من الرذائل، وهذا مما يؤكد أن الخلق الحسن يحمل علىٰ الفضائل، ويمنع من الرذائل، كما قيل في ذلك:

إن الكريم إذا تمكن من أذى ... جاءته أخلاق الكرام فأقلعا
وترى اللئيم إذا تمكن من أذى ... يطغى فلا يبقي لصلح موضعا

وقد أشار القرآن إلىٰ هذا الجانب في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عِمرَان].

ثم قال الشيخ عطية محمد سالم:

تنبيه:

اتفق علماء الاجتماع أن أسس الأخلاق أربعة: هي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة.

ويقابلها رذائل أربعة: هي الجهل، والشره، والجبن، والجور، ويتفرع عن كل فضيلة فروعها:

الحكمة: الذكاء وسهولة الفهم، وسعة العلم.

وعن العفة: القناعة، والورع، والحياء، والسخاء، والدعة، والصبر، والحرية.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٢٠٥٩) والترمذي في الجامع أبواب البر والصلة باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧).

(٢) المحفوظ بلفظ (ما شئت) رواه البخاري في الصحيح كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار (٣٤٨٣).

وعن الشجاعة: النجدة، وعظم الهمة، وعن السماحة: الكرم، والإيثار، والمواساة، والمسامحة.

أما العدالة وهي أم الفضائل الأخلاقية، فيتفرع عنها: الصداقة، والألفة، وصلة الرحم، وترك الحقد، ومكافأة الشر بالخير، واستعمال اللطف.

فهذه أصول الأخلاق وفروعها، فلم تبق خصلة منها إلا وهي مكتملة فيه ﷺ.

وقد برأه الله من كل رذيلة، فتحقق أنه ﷺ علىٰ خُلقٍ عظيم، فعلاً وعقلاً.

ثم ختم الشيخ تفسيره للآية بقوله: إنها نعمة الله تعالىٰ عليه وعلىٰ أمته معه، صلوات الله وسلامه عليه، ورزقنا التأسي به.

آداب يشترك فيها المعلم والمتعلم

من الكتب المهمة المعتنية بأخلاق طالب العلم والداعي إلىٰ الله تعالىٰ كتاب **(الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد)** الذي ألَّفه بدر الدين محمد بن محمد الغزي رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث تكلم فيه عن أمور كثيرة، في فضيلة الاشتغال بالعلم، وآدابه، وأقسام العلم الشرعي، وآداب المعلم والمتعلم والفتوى والمناظرة ونحو ذلك.

ومما عقده رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب: فصلٌ في آداب اشترك فيها المعلم والمتعلم، فذكر آداباً كثيرة ومما قال رَحِمَهُ اللَّهُ[١]:

ومنها: أن يطهِّر نفسه بتجنب مساوئ الأخلاق ومذموم الأوصاف؛ كالحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس، وإن كانوا دونه بدرجات، والغل والبغي والغضب لغير الله والغش، والسمعة والبخل والخبث والبطر والطمع والفخر والخيلاء، والتنافس في الدنيا والمباهاة بها والمداهنة والتزين للناس، وحب المدح بما لم يفعل، والعمى عن عيوب الناس، والاشتغال عنها بعيوب الخلق، والحمية والعصبية لغير الله تعالىٰ، والرغبة والرهبة لغيره، والغيبة والنميمة والبهتان والكذب والفحش في القول، فإنها باب كل شر.

والعلم كما قال الغزالي: عبادة القلب وصلاة السر، وكما

(١) الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد (١٢٦-١٣٣).

لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح إلا بتطهير الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق، قال النبي ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب**»[(١)]، والصفات الرديئة في القلب كلاب نابحة، ونور العلم لا يقذفه الله تعالىٰ في القلب إلا بواسطة الملائكة، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشّورىٰ: ٥١][(٢)].

قال ابن مسعود: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم نور يقذف في القلب.

وقد ابتُلي بعض أصحاب النفوس الخبيثة من فقهاء الزمان بكثير من هذه الصفات الذميمة إلا من عصمه الله، ولا سيما الأربع الأول، وأدوية ذلك مستوفاة في كتب الرقائق، ومن أنفعها: كتاب الرعاية للمحاسبي.

ومن أدوية الحسد: أن يعلم أن حكمة الله اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان، فلا يعترض ولا يكره ما اقتضته الحكمة، ولم يذمه الله تعالىٰ فيقع في المعصية، ويغم نفسه، ويتعب قلبه، ويعذبه مما لا ضرر فيه علىٰ المحسود، وما أحسن ما قال الشاعر:

فإن تغضبوا من قسمة الله بيننا ... فلله إذ لم يرضكم كان أبصرا

بل وسُنة الله في مثل هذا أن يسلبه حالته التي أنعم بها

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه (٣٣٢٢) ومسلم في صحيحه كتاب اللباس والزينة باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة (٢١٠٦).

(٢) انظر كتاب إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٤٨-٤٩).

عليه، وأن يزيد محسوده من المنعم به عليه، لشكره وتواضعه وعدم غضبه لنفسه، وانتصاره لها، فليعقل نعمته بشكرها، ولا ينفرها بكفرها، وما أحسن ما قال الإمام المعافي بن زكريا رَحِمَهُ اللَّهُ:

ألا قل لمن كان لي حاسداً ... أتدري علىٰ من أسأت الأدب
أسأت علىٰ الله في فعله ... لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك عني بأن زادني ... وسَدَّ عليك وجوه الطلب

ومن أدوية الرياء: أن يعلم أن الخلق لا يقدرون علىٰ نفعه ولا ضره بما لم يقدِّره الله تعالىٰ عليه، فلا يتشاغل بمراعاتهم، فيتعب نفسه ويضر بها، ويحبط عمله ويرتكب سخط الله تعالىٰ ويفوت رضاه، مع أن الله يطلعهم علىٰ نيته وقبح سريرته، كما صح في الحديث: «**من سمَّع سمَّع الله به، ومن رائى رائى الله به**»[(١)]، أي من قصد السمعة والرياء شهره الله تعالىٰ وفضحه، ففيه نوع مشاكلة.

ومن أدوية الإعجاب: أن يعلم أن علمه وفهمه وجودة ذهنه وفصاحته وغير ذلك من النعم فضل من المنعم جل وعلا، وهو معه عارية وأمانة، ليرعاها حق رعايتها، وأن معطيه إياها قادر علىٰ سلبها منه في طرفة عين، كما سلب بلعام ما علمه في طرفة عين، وما ذلك علىٰ الله بعزيز، فإن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فينبغي أن لا يعجب بشيء لم يخترعه، وليس مالكاً له ولا علىٰ يقين من دوامه.

ومن أدوية الاحتقار: التأدب بما أدَّبنا الله تعالىٰ به، قال

(١) هذا لفظ الإمام مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٦).

تعالىٰ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحُجرَات: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النّجْم: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، فربما كان هذا الذي دونه أتقى لله تعالىٰ، وأطهر وأخلص نية، وأزكى عملاً، كما قيل: إن الله تعالىٰ أخفَى ثلاثة في ثلاثة: وليَّه في عباده، ورضاه في طاعته، وغضبه في معاصيه.

ثم إن هذا المحتقِر لا يعلم بماذا يختم له، ففي الصحيح: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة...**» الحديث[(١)]، نسأل الله العافية من كل داء.

ومنها: أن يتجنب مواضع التهم، وإن بعدت، ولا يفعل شيئاً يتضمن نقص مروءة، أو ما يستنكر ظاهراً، حتىٰ وإن كان جائزاً باطناً، فإنه يعرض نفسه وعرضه للوقيعة، ويوقع الناس في الظنون المكروهة، فإن اتفق له وقوع شيء من ذلك لحاجة أو نحوها؛ أخبر من شاهده وأصحابه بحقيقة ذلك الفعل وبعذره ومقصوده؛ لينتفعوا، أو لئلا يأثموا بظنهم الباطل، ولئلا ينفروا عنه، ويمتنع الانتفاع به أو نفعه منهم.

ومن هذا: الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للرجلين لما رأياه يتحدث مع صفية فولَّيا: «**علىٰ رسلكما إنها صفية**»، ثم قال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، فخفت أن يقذف في قلوبكما شيئاً**»، وروي: «**فتهلكا**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب قوله تعالىٰ (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) (٧٤٥٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده (٣٢٨١) ومسلم في صحيحه كتاب السلام باب بيان أنه يستحب لمن =

فإن صدَّقه نجا من الإثم، وإن كذَّب استمر عليه، ولا يضر ذلك المظنون به، فقد صدَّق فيما أُخبِر، وتأسَّى برسول الله ﷺ، ولا يضره حينئذ أيضاً نفرة الظان عنه، فمن هو منطو علىٰ هذه الطوية، لا خير فيه، فبعده عنه أولى له، هذا ما ظهر لي في ذلك، فليتأمل، والله الموفق.

انتهى كلام بدر الدين الغزي رحمه الله تعالىٰ.

= رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (٢١٧٥)، أما الرواية التي ذكرها فليست في كتب السنة.

شكر الوالدين

يقول العلامة الكبير الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي رحمه الله تعالىٰ في كتابه **(بر الوالدين)**، في بيان معنى الشكر الواجب علىٰ الإنسان تجاه والديه، الوارد في قول الله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان]، وبيان أنه مهما عمل الإنسان تجاه والديه فلن يستطيع شكرهما علىٰ ما قاما به تجاهه، وقد عقد رَحِمَهُ اللَّهُ مقارنة بين ما قام به الوالدان تجاه ابنهما، وما يقوم به تجاههما، في أسلوب يجذب القلب وينبه كل ذي عقل، فقال الطرطوشي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وأما شكر الوالدين فيتحقق بنوعين من أنواع الشكر، وهما الشكر باللسان والشكر بالجوارح، ثم بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الأفعال تكون شكراً علىٰ النعم، بل إنِّ من الأفعال ما هو أشد ملاءمة للنعمة من غيره، ولهذا فإنَّ مواساة الفقراء من الغني أشكلُ بالشُّكر علىٰ الغنى من غيرها، لأنها من جنس النعمة، فإذا أردت أن لا تُحرمن دوام نعم الله تعالىٰ عليك فأدم مواساة الفقراء.

وتبجيل ذوي الضَّعةِ والخمولِ والتواضعُ لهم أشكلُ بالشكر علىٰ نعمة الله تعالىٰ عليك في رفعِ قدرِك والتنويه باسمك، وكذلك تمريضُ المرضى، وتولي خدمتهم، وتلطيفُ أغذيتهم

(١) بر الوالدين لأبي بكر الطرطوشي ().

وأدويتهم، أشكلُ بالشكر علىٰ العافية من سائر الطاعات، وعلىٰ هذا المثال يجري الأمر فيما سوى ذلك.

وإذا كان كذلك، فخذ الآن فيما أسدى الأبوان إليك:

أما أولاً: فكانا السببَ في وجودك، ثم من حين استقرار النطفة في قرارها إلىٰ أن تولد، فإنما الحديثُ كلُّه: إياكِ إياكِ، حذراً علىٰ النطفة، فلا يكون طعامها إلا ما يُثبِّتها في القرار، ويغذُوها في النشوء، وتترك الشهوات اللذيذة والأطعمة الشهية، إذا كان يضر بالنطفة.

وتترك الأمهات ممارسة الأشغال، والتردد في قضاء الأوطار، والمشي في الطرقات، وحمل الأثقال إشفاقاً علىٰ النطفة، وهكذا من يوم تولد إلىٰ أن تستقلَّ، لا يُحمل للمنزل من الطعام إلا ما يلائم المولود، وإن كان غير محبوب عند الأبوين، فيتركان محبوباتهما، وكثيراً من حسناء عيشهما، كرامة للولد.

ثم ينتصبان لتربيتك وجلب المنافع إليك، ودفع المضار عنك، ولو تُركتَ في الأرض أكلتك الهوام، وعقرتك الحشرات، فلا يزالان يطلبان رضاك، حتىٰ يبدو تمييزك، حتىٰ إن بكيت أو حزنت خدعاك عن البكاء، وصرفاك عن الحزن، وسلَّياك عن كل ما يصيبك بما في ميسورهما.

ولقد بلغ من أمرهما في تطييب نفسك، وإقرار عينك ودفع ما يضيق به صدرك مبلغاً لا تجازيهما عليه أبداً، وكيف لا، وقد كسيا لك لعبة يطيب بها عيشك، وتلهيك عما يضيق به صدرك، فلما ترعرع جسمك واشتد أمرك، وبلغت سن الرجاء والأمل، جازيتَ بالإحسانِ إساءةً، وبالوصل قطيعةً، وبالتواضع غلظةً

وفظاظةً، وبالتربية جفاءً، وبالذنوب بُعداً، وبالمحبة نفوراً، وبالبذل والعطاء منعاً وبخلاً، فقطعتَ ما أمر الله به أن يُوصلَ، ومنعتَ ما أمر الله به أن يُبذلَ، وكم ليلة باتا ساهرين لسهرك، باكيين لبكائك، متململين لألمك، طاويين إذا لم تأكلْ، مهمومين إذا لم تفرحْ، فكان جزاؤهما منك أنْ أبكيت عيونهما، وأسهرت ليلهما، وضيَّقت صدورهما، وبلبلت قلوبهما، إن قالا لك: أقبلْ، أدبرتَ، وإن قالا لك: أدبرْ، أقبلتَ، وإن قالا: نعم، قلت: لا، وإن قالا: لا، قلت: نعم.

كأنك موكَّل بخلافهما، ومنتصب لعقوقهما، فقابلت كلَّ نعمةٍ أفضياها عليكَ، وعارفةٍ أسدياها إليك، بضدِّها من الشر، وخلافها من الضرِّ.

فواعجباً لهذا الميزانِ الناقصِ والجزاءِ الفاضح، وأقلُّ ما كان يجبُ لهما عليك؛ إذ عجزت عن الشكرِ المبرِّ علىٰ الصنيعة: بذلُ المكافأة المقاومة للصنيعة.

وهما قد ربيَّاك خمسة عشر حولاً في حجورهما، تفيض نجاستك عليهما، فيغسلان بولك ورُحاضتك بأيديهما، ويميطان عنك الأذى والمكروه جَهدهما، طيبةً بذلك نفوسهما، فكان يجب من هذا مكافأتهما.

فإذا بلغا عندك الكِبرَ: أحدُهما أو كلاهُما، فذهبت قوتهما ونقصتْ عقولهما، وشرَسَت أخلاقهما، ورجعا في معظم شأنهما إلىٰ حالِ الضعف والطفولية، المضاهية لحالِ الصغرِ، أن تقوم عليهما بالتربيةِ والملاطفة؛ فتتولى منهما ما تولَّيا منك: من لزومِ خدمتهما، وغسلِ رُحاضتهما، وإماطةِ الأذى عنهما، وتلطيفَ

الغذاءِ لهما، خمسةَ عشر حولاً في الكبر، كما ربيَّاك خمسة عشر حولاً في الصغر.

ثم لو فعلت هذا، كنتَ مكافئاً لا شاكراً.

لأن الشكرَ هو الزيادةُ علىٰ المقاومةِ، بل لا تكون مكافئاً أيضاً، لأنهما ربيَّاك طيبةً نفوسهما، علىٰ غبطةٍ وسرورٍ بمكانك، يريدان حياتَك، ويؤمِلان مسرَّتك، وأنت بخدمتهما بَرِمٌ، وبالقيام عليهما متأفِّفٌ، تريدُ موتَهما، وتبتغي استعجالَ الراحةِ منهما، كأنك سيدٌ وهما عبيدٌ، وكيفَ لا، فاللهُ تعالىٰ لم يجعل الدنيا عوضاً عن برِّ الوالدين، بل قال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء]أي سلِ اللهَ لهما الآخرة.

ثم أفاض الطرطوشي الكلام عن أنواع البر ومعاني العقوق، وما يجب للوالدين علىٰ الولد، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة، وجازى عنا والدِينا خير الجزاء وأوفاه.

بين المعلم والمتعلم

إن من أعظم ما يزيد طالب العلم رفعة ومكانة: هو نسبته العلم إلىٰ أهله، والفضل إلىٰ أهل الفضل، ولقد ذكر الشيخ الإمام محمد بن عبدالله الأندلسي المعروف بابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه **(أحكام القرآن)**، قصة جميلة في اعتراف العالم وطالب العلم بالعلم، ونسبته لأهله، وأن ذلك لا ينقصه شيئاً، بل يزيده رفعة ومكانة، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]:

أخبرني محمد بن قاسم العثماني غيرَ مرة قال: وصلت الفُسطاط مرة، فجئت مجلس الشيخ أبي الفضل الجوهري، وحضرت كلامه علىٰ الناس، فكان مما قال في أول مجلس جلست إليه: إن النبي ﷺ طلَّق، وظاهر، وآلى، فلما خرجَ تبعتُه، حتىٰ بلغت معه إلىٰ منزله، في جماعة من الناس، فجلسَ معنا في الدهليزِ، وعرفوا أمري، فإنهم رأوا أمارة الغربة عليَّ، ولم يُعرف الشخصُ قبل ذلك في الواردين عليه، فلما انفضَّ عنه أكثرهم، قال لي: أراك غريباً، هل لك من كلام؟ قلت: نعم، فقال لجلسائه: أفرِجوا له عن كلامه، فقاموا، وبقيت وحدي معه، فقلت له: حضرت المجلس اليوم متبركاً بك، وسمعتك تقول: آلى رسول الله ﷺ وصدقْتَ، وطلَّق رسول الله ﷺ

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٢٤٨-٢٤٩).

وصدقْتَ، وقلت: وظاهر رسول الله ﷺ، وهذا لم يكن، ولا يصحُّ أن يكون، لأن الظهار منكر من القول وزور، وذلك لا يجوز أن يقع من النبي ﷺ.

فضمَّني إلىٰ نفسه وقبَّل رأسي، وقال لي: أنا تائب من ذلك، جزاك الله عني من معلم خيراً، ثم انقلبت عنه، وبكَّرت إلىٰ مجلسه في اليوم الثاني، فألفيته قد سبقني إلىٰ الجامع، وجلس علىٰ المنبر، فلما دخلت من باب الجامع ورآني، نادى بأعلىٰ صوته: مرحباً بمُعلِّمي، أَفسِحوا لمعلِّمي، فتطاولت الأعناق إليَّ، وحدَّقت الأبصار نحوي، قال العثماني مخاطباً ابن العربي: وتعرفني: يا أبا بكر، يشير إلىٰ عظيم حيائه، فإنه كان إذا سلَّم عليه أحد أو فاجأه: خجِل لعظيم حيائه، واحمرَّ حتىٰ كأن وجهه طُليَ بجُلِّنارٍ، قال: وتبادر الناسُ إليَّ يرفعونني علىٰ الأيدي، ويتدافعوني حتىٰ بلغت المنبر، وأنا لعِظم الحياء لا أعرف في أيِّ بقعة أنا من الأرض، والجامع غاصٌّ بأهله، وأسالَ الحياءُ بدني عرقاً، وأقبل الشيخُ علىٰ الخلق، فقال لهم: أنا معلمكم، وهذا معلمي، لـمَّا كان بالأمس قلت لكم: آلى رسول الله ﷺ وطلَّق، وظاهر، فما كان أحد منكم فقِهَ عني، ولا ردَّ علي، فاتَّبعَني إلىٰ منزلي، وقال لي: كذا وكذا، وأعاد ما جرى بيني وبينه، وأنا تائب عن قولي بالأمس، وراجعٌ عنه إلىٰ الحق، فمن سمعه ممن حضر فلا يعول عليه، ومن غاب فليبلغه من حضر، فجزاه الله خيراً، وجعل يحفل في الدعاء، والخلق يؤمنون.

قال ابن العربي: فانظروا رحمكم الله إلىٰ هذا الدين

المتين، والاعتراف بالعلم لأهله علىٰ رؤوس الملِأ، من رجل ظهرت رياسته، واشتهرت نفاسته، لغريبٍ مجهول العين، لا يُعرف مَنْ، ولا مِنْ أين؟، فاقتدوا به ترشدوا. انتهى كلام ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإن كان ابن العربي قد أشاد بحسن تصرف الشيخ مع هذا الرجل الغريب، الذي نبهه علىٰ خطئه، ونسبته الفضل والعلم له، فإن ما قام به هذا الرجل من طريقة تنبيه الشيخ إلىٰ خطئه لهي أدبٌ آخر، لا يقِل عن الأول علواً ورفعة، وهكذا العلم يزرع في نفوس العالم والمتعلم: الخلقَ والأدبَ قبل العلم.

مناصحة العلماء للحكام

من الأمور التي ينبغي للعالم الناصح الحرص عليها، وبخاصة إذا كانت له مكانة لدى الحاكم: مناصحة الحاكم وإرشاده إلىٰ ما ينفعه، بالطريق الشرعي المعتبر، ومن ذلك الكتابة له، فيما بينه وبينه، وقد حفظت لنا كتب التراجم نماذج من مناصحات بعض العلماء لبعض الخلفاء والملوك، ومن ذلك مناصحة جميلة كتبها الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد ذكر القاضي عياض اليحصبي في كتابه **(ترتيب المدارك وتقريب المسالك في تراجم أصحاب الإمام مالك)** نماذج من مناصحة الإمام مالك لبعض الخلفاء، تبيِّن الأدب الشرعي في المناصحة، وما كان عليه السلف رحمهم الله، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]:

قال سعيد بن أبي زِنبر: كتب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ بعض الخلفاء كتاباً يعظه فيه: أما بعد: فإني كتبت إليك كتاباً لم آلُ فيه رشداً، ولم أدخر فيه نصحاً، فيه تحميد لله، وأدب لرسول الله ﷺ، فتدبر ذلك بعقلك، وردِّد فيه بصرك، وأوعِه سمعك، واعقِلْه بعقلك، وأحضِرْهُ فهمك، ولا تغيِّبَنَّ عنه ذهنك، فإن فيه الفضل في الدنيا، وحسن ثواب الله تعالىٰ في الآخرة.

ذكِّر نفسك غمراتِ الموت، وما هو نازل بك منه، وما أنت

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض اليحصبي (٢/ ١٠٦-١٠٨).

موقوف عليه بعد الموت، من العرض علىٰ الله تعالىٰ، ثم الحساب، ثم الخلود بعد الحساب، إما إلىٰ الجنة، وإما إلىٰ النار، وأعدَّ له ما تسهل به عليك أهوال تلك المشاهد وكُرَبِها، فإنك لو رأيت أهل سخط الله، وما صاروا إليه من أنواع العذاب، وشدة نقمة الله، وسمعت زفيرهم في النار، وشهيقهم، مع كلوح وجوههم، وطول غمتهم، وتقلبهم في أدراكها علىٰ وجوههم، لا يسمعون ولا يبصرون، يدعون بالثبور، وأعظم من ذلك حسرةً: إعراضُ الله تعالىٰ بوجهه، وانقطاع رجائهم من رَوحِه، وإجابته إياهم بعد طول الغم: أن ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون]، لم يتعاظمك شيء من الدنيا أردت به النجاة من ذلك، ولا أمَّنَكَ من هوله، ولو قدَّمت في طلب النجاة جميع ما لأهل الدنيا، كان ذلك صغيراً.

ولو رأيت أهل طاعة الله، وما صاروا إليه من كرامة الله، ومنزلتهم مع قربهم من الله تعالىٰ، ونَضرَة وجوههم، ونُور ألوانهم، وسرورهم بالنظر إليه، والمكانة منه، والجاه عنده، مع قربه منهم، لتقلَّل في عينك عظيمُ ما طلبت به الدنيا، فاحذر علىٰ نفسك حذراً من غير تقرير، وبادر إلىٰ نفسك قبل أن تُسبق إليها، وما تخاف الحسرةَ فيه عند نزول الموت، وخاصم نفسك لله تعالىٰ علىٰ مَهلٍ، وأنت تقدر بإذن الله تعالىٰ علىٰ جَرِّ المنفعة إليها، وصرف الحجة عنها، قبل أن يُولِّيكَ الله حسابَها، ثم لا تقدر علىٰ صرف المكروه عنها، ولا جرِّ المنفعة إليها.

اجعل لله من نفسك نصيبها بالليل والنهار، فإن عمرك ينقص مع ساعات الليل، وأنت قائم علىٰ الأرض وهو يسير بك، فكلما مضت ساعةٌ فمِن أجَلِكَ، والحفظةُ لا يغفلون عن الدقِّ

والجَلِّ من عملك، حتىٰ تملأ صحيفتك التي كتبَ الله عليك.

فعليك بخلاص نفسك إن كنت لها محباً، فاحذر ما قد حذَّرك الله منه تعالىٰ، فإنه يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨]، ولا تحقر الذنب الصغير، مع ما علمت من قول الله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزَلة]، وقال: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [قۤ].

وحافظ علىٰ فرائض الله، واجتنب سخط الله، واحذر دعوة المظلوم، واتق يوماً ترجع فيه إلىٰ الله، والسلام.

وقال ابن نافع الصائغ: كتب مالك إلىٰ بعض الخلفاء كتاباً فيه: اعلم أن الله تعالىٰ قد خصَّك من موعظتي إياك؛ بما نصحتك به قديماً، وبيَّنت لك فيه ما أرجو أن يكون الله تعالىٰ جعله لك سعادة، وأمراً جعلَ به سبيلك إلىٰ الجنة، فلتكن ـ رحمنا الله وإياك ـ فيما كتبتُ إليك، مع القيام بأمر الله، وما استدعاك الله في رعيته، فإنك المسؤول عنهم، صغيرِهم وكبيرِهم، وقد قال النبي ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»(١)، وروي في بعض الحديث: «**أنه يؤتى بالوالي ويده مغلولة إلىٰ عنقه، فلا يَفكُّ عنه إلا العدل**»(٢)، وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه يقول:

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن (٨٩٣) ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩).

(٢) ورد في ذلك عدة أحاديث بألفاظ مقاربة لما ذكره الإمام مالك منها ما رواه الإمام أحمد في المسند (٩٥٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا، لا يفكه إلا العدل، أو يوبقه الجور**»، وصححه للباني في السلسة الصحيحة (٢٦٢١).

والله إن هلكت سَخلةٌ بشطِّ الفرات ضياعاً؛ لكنتُ أرى الله تعالىٰ سائلاً عنها عمر[١].

وحجَّ عشر سنين، وبلغني أنه كان ما ينفق في حجه إلا اثني عشر ديناراً.

وكان ينزل في ظلِّ الشجرة، ويحمل علىٰ عنقه الدرَّة، ويدور في الأسواق، يسأل عن أحوال من حضره، وغاب عنه.

وبلغني أنه وقتَ أصيبَ، حضر أصحابُ النبي ﷺ فأثنوا عليه، فقال: المغرور من غرَّرتموه، لو أنَّ ما علىٰ وجه الأرض ذهبٌ، لافتديت به من أهوال المطلع[٢].

فعمرُ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ كان مسدداً موفقاً، مع ما قد شهد له النبي ﷺ بالجنة، ثم مع هذا خائف؛ لمَّا تقلد أمور المسلمين، فكيف مَنْ قد علمت.

فعليك بما يُقرِّبك إلىٰ الله، ويُنجيك منه غداً، واحذر يوماً لا يُنجيك فيه إلا عملك.

وليكن لك أسوة بما قد مضى من سَلفِك، وعليك بتقوى الله، فقدِّمه حيث هممت، وتَطَلَّع فيما كتبت به إليك في أوقاتك

---

(١) ورد ذلك عن عمر بلفظ (لو ماتت سخلة علىٰ شاطئ الفرات ضياعا لخشيت أن يسألني الله عنها) رواها البلاذري عن محمد بن سعد بسنده في أنساب الأشراف (١٠/ ٣٥٤) وجاءت في الطبقات الكبرى لابن سعد بلفظ (لو مات جمل) (٣/ ٢٣٢).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان في حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه (٤٥٣٠) وابن حبان في صحيحه في ذكر رضا المصطفى ﷺ عن عمر عند فراقه الدنيا (٦٨٩١) كلاهما بلفظ: «**المغرور من غررتموه، ولو أن لي ما علىٰ ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المطلع**».

كلِّها، وخذ بنفسك فتعاهدها، والأخذ به والتأديب عليه، وأسأل الله تعالىٰ التوفيق والرشاد ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

انتهت نصيحة الإمام مالك لأحد الخلفاء، رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة، وهي تعد نموذجاً لنصائح العلماء للخلفاء والملوك، النصيحة الشرعية، التي يسلك بها الناصح الطريقة الشرعية الصحيحة.

ردود العلماء بعضهم على بعض

إن مما يستوقف طالب العلم والداعية المبتدئ في طلبه ودعوته، ما قد يجده من ردود ومناقشات بين العلماء، وتخطئة بعضهم لبعض في مسائل العلم، وما يكون بينهم من مساجلات علمية، فينفر من ذلك، وقد يظنه إنقاصاً لقدر العالم أو خطأ في الأسلوب، وهذا المسلك ـ وهو مناقشة العالم لأخيه العالم فيما يختاره من رأي هو في نظره مخالف للصواب ـ هو محض العلم، وهو بيان الحق الذي يدين الله به، لكن بأدب العلم والعلماء، ولذلك اللوم يتجه في الحقيقة إلىٰ صغار طلبة العلم والمبتدئين، حين يتخذون من خطأ عالم أو فقيه أداة للسب أو التقليل من شأنه.

ولقد كان هذا الأمر حاضراً لدى علماء السلف رحمهم الله، ونكتفي هنا بما افتتح به ابن قتيبة الدينوري كتابه **(إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث)**، حيث خاف من استيحاش الناس من عنوان كتابه، ونسبته الغلط إلىٰ أحد العلماء، فافتتح كتابه بقوله[(١)]:

لعلَّ ناظرًا في كتابِنا هذا ينفر من عنوانِه، ويستوحِشِ من ترجمتِه، ويربَأُ بأبي عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ عن الهَفْوة، ويأْبَى له الزلة،

(١) إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث لابن قتيبة (٤٢-٤٧).

وينحلها قَصْبَ العلماء، وهتكَ أستارهم، ولا يعلم تقلُّدنا ما تقلَّدناه من إكمال ما ابتدأ: من تفسير غريب الحديث، وتشييد ما أسّسَ، وأنّ ذاك هو الذي ألزمَنَا إصلاحَ الفساد، وسدَّ الخلل، علىٰ أننّا لم نقل في ذلك الغلط: إنه اشتمالٌ علىٰ ضلالة، أو زيغ عن سنة، وإنما هو في رأي مضى به علىٰ معنى مستتر، أو حرف غريب مشكل.

وقد يتعثَّر في الرأي جِلَّةُ أهلِ النظر، والعلماءِ المبرزون، والخائفُون لله الخاشِعُون، فهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم ـ وهم قادة الأنام، ومعادِن العلم، وينابيع الحكمة، وأولى البشر بكل فضيلة، وأقربُهم من التوفيق والعصمة ـ ليس منهم أحدٌ قال برأيِهِ في الفقه إلا وفي قوله ما يأخُذ به قومٌ، وفيه ما يرغب عنه آخرون.

وهذا الصديق أبو بكر يخالفه أكثرُ الناس في الجَدِّ، وهذا علي رضي الله عنه يخالَف في بيع أمهات الأولاد، وهذا حذيفة يخالَف في وقت السحور، وهذا ابن مسعود يخالَف في صلاة الجمعة قبل الزوال، وفي ترك الجنب حتىٰ يجد الماء.

وهذا ابن عباس يخالَف في الصرف والمتعة، والجمع بين الأختين الأمَتين، وكذلك التابعون، كالحسن يخالَف في قوله: إن القَوَدَ لا يقع إلا بشهادة أربعة علىٰ القتل، وكشريح يخالَف في قضائه بشهادة الصبيان علىٰ أَمَةٍ، والناسُ يختلفون في الفقه، ويردّ بعضُهم علىٰ بعض، في الحلال أنه حرام، وفي الحرام أنه حلال، وهذا طريق النجاة أو الهلكة، لا كالغريب والنّحو والمعاني التي ليس علىٰ الهافي فيها كبير جناح، كالشافعي يردُّ

علىٰ الثوري وأصحاب الرأي، وعلىٰ معلّمِه مالك بن أنس.

وأبو عبيد يختارُ من أقاويلِ السّلف في الفقه، ومن قراءتِهم، ويُرذِّل منها، ويدلُّ علىٰ عورات بعضها بالحجج البيّنة.

وعلماءُ اللغة أيضاً يختلِفُون، ويُنبِّه بعضُهم علىٰ زلَل بعض، والفرَّاء يردُّ علىٰ إمامِه الكسائي، وهشام يردُّ علىٰ الفراء، والأصمعي يُخطِّئ المفضَّل الضبي....

إلىٰ أن قال: ولا نعلم أن الله ﷻ أعطى أحداً من البشر موثقاً من الغلط، وأماناً من الخطأ؛ فيستكفُّ له منها؛ بل وصل عباده بالعجز، وقرنهم بالحاجة، ووصفهم بالضعف والعجلة؛ فقال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النِّسَاء]، ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبيَاء: ٣٧]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يُوسُف].

ولا نعلمه خَصَّ بالعلم قوماً دون قوم، ولا وقفه علىٰ زمن دون زمن؛ بل جعله مشتركاً مقسوماً بين عباده؛ يفتح للآخرِ ما أغلقه عن الأول، ويُنبِّه المقلَّ منه علىٰ ما غَفَل عنه المكثر، ويحييه بمتأخر يتعقَّب قول متقدم، وتالٍ يعتبر علىٰ ماضٍ، وأوجب علىٰ كل من علم شيئاً من الحق أن يظهره وينشره، وجعل ذلك زكاة العلم؛ كما جعل الصدقة زكاة المال.

وقد قيل: (اتقوا زلة العالم)، وزلة العالم لا تُعرف حتىٰ تُكشف، وإن لم تُعرف هلك بها المقلِّدون؛ لأنهم يتلقفونها من العالم بالقبول، ولا يرجعون إلا بالإظهار لها وإقامة الدلائل عليها، وإحضار البراهين.

وقد يَظن من لا يعلم من الناس، ولا يضع الأمور في مواضعها؛ أن هذا اغتياب للعلماء وطعن علىٰ السلف وذكر

للموتى، وكان يقال: (اعفُ عن ذي قبر)، وليس ذلك كما ظنوا؛ لأن الغيبة سبُّ الناس بلئيم الأخلاق، وذكرهم بالفواحش والشائنات، وهذا هو الأمر العظيم المشبَّه بأكل اللحوم الميتة؛ فأما هفوة في حرف، أو زلة في معنى، أو إغفال أو وهم أو نسيان؛ فمعاذ الله أن يكون هذا من ذلك الباب، أو أن يكون له مشاكلاً أو مقارباً، أو يكون المنبِّه عليه آثماً؛ بل يكون مأجوراً عند الله، مشكوراً عند عباده الصالحين، الذين لا يميل بهم هوى، ولا تدخلهم عصبية، ولا يجمعهم علىٰ الباطل تحزب، ولا يلفتهم عن استبانة الحق حسد.

وقد كنا زماناً نعتذر من الجهل؛ فقد صرنا الآن نحتاج إلىٰ الاعتذار من العلم، وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة؛ فصرنا نرضى بالسلامة، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال، ولا ينكر مع تغير الزمان، وفي الله خَلفٌ، وهو المستعان.

انتهى كلام ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ وعفا عنه، فما أجمل كلامه في بيان هذا الأمر، وهو المسلك العلمي في شأن بيان خطأ العالم، وكيف يتم التعامل معه.

الفرق بين أصحاب الحديث وأصحاب البدع

قال الإمام أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الذي سماه **(الانتصار لأهل الحديث)** في تفريقه بين المنتسبين إلىٰ السنة والمنتسبين إلىٰ البدعة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ[١]:

من علامات الفرقة الناجية اتفاقهم في أصول الدين ومسائل الاعتقاد، ويزيد ما قلناه إيضاحاً: أن النبي ﷺ حين سئل عن الفرقة الناجية قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[٢] بمعنى: من كان علىٰ ما أنا عليه وأصحابي، فلابد أن تعرف ما كان عليه رسولُ الله وأصحابُه، وليس طريق معرفته إلا النقل، فيجب الرجوع إلىٰ ذلك.

وقد قال النبي ﷺ: «**لا تنازعوا الأمر أهله**»[٣] فكما يُرجع في معرفة مذاهب الفقهاء ـ الذين صاروا قدوة في هذه الأمة ـ إلىٰ أهل الفقه، ويُرجع في معرفة اللغة إلىٰ أهل اللغة، ويُرجع في معرفة النحو إلىٰ أهل النحو، فكذلك يجب أن يُرجع في معرفة ما كان عليه رسول الله وأصحابه إلىٰ أهل النقل والرواية، لأنهم عُنوا

(١) الانتصار لأهل الحديث للسمعاني (٤٢-٥١) بتصرف.
(٢) رواه الترمذي في الجامع في أبواب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١) وحسن إسناده أحمد شاكر.
(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأحكام باب كيف يبايع الإمام الناس (٧١٩٩).

بهذا الشأن، واشتغلوا بحفظه والتفحص عنه، ونقله، ولولاهم لاندرس علم النبي ﷺ، ولم يقف أحد علىٰ سنته وطريقته.

ومما يدل علىٰ أن أهل الحديث هم علىٰ الحق، أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلىٰ آخرهم، قديمهم وحديثهم، مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطراً من الأقطار، وجدتَهم في بيان الاعتقاد علىٰ وتيرة واحدة، ونمط واحد، يَجرون فيه علىٰ طريقةٍ لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحدٌ، وفعلهم واحدٌ، لا ترى بينهم اختلافاً ولا تفرقاً في شيءٍ ما وإن قلَّ، بل لو جمعت جميع ما جرى علىٰ ألسنتهم، ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأنه جاء من قلبٍ واحدٍ، وجرى علىٰ لسانٍ واحدٍ، وهل علىٰ الحق دليلٌ أبينَ من هذا؟

قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّسَاء]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].

وأما إذا نظرت إلىٰ أهل الأهواء والبدع: رأيتهم متفرقين مختلفين، وشيعاً وأحزاباً، لا تكاد تجد اثنين منهم علىٰ طريقة واحدة في الاعتقاد، يبدِّعُ بعضهم بعضاً، بل يرتقون إلىٰ التكفير، يُكفِّر الابن أباه، والرجل أخاه، والجار جاره.

تراهم أبداً في تنازعٍ وتباغضٍ واختلافٍ، تنقضي أعمارهم ولمَّا تتفق كلماتهم، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وكان السبب في اتفاق أهل الحديث: أنهم أخذوا الدين من الكتاب والسنة وطريق النقل، فأورثهم الاتفاق والائتلاف، وأهل البدعة أخذوا الدين من المعقولات والآراء، فأورثهم الافتراق والاختلاف، فإن النقل والرواية من الثقات والمتقنين؛ قلمَّا يختلف، وإن اختلفَ في لفظٍ أو كلمةٍ فذلك اختلاف لا يضر الدين ولا يقدح فيه، وأما دلائل العقل فقلمَّا تتفق، بل عقل كلِّ واحدٍ يُرِي صاحبَه غيرَ ما يُرِي الآخر، وهذا بيِّنٌ والحمد لله.

وبهذا يظهر مفارقة الاختلاف في مذاهب الفروع اختلاف العقائد في الأصول، فإنَّا وجدنا أصحاب رسول الله، وهم من بعدَه، اختلفوا في أحكام الدين، فلم يفترقوا ولم يصيروا شيعاً، لأنهم لم يفارقوا الدين، ونظروا فيما أُذِن لهم؛ فاختلفت أقوالهم وآراؤهم في مسائل كثيرة، مثل: مسألة الجَدِّ، والمُشرَّكةِ، وذوي الأرحام، ومسألة الحرام، وفي أمهات الأولاد، وغير ذلك مما يكثر تعداده، من مسائل البيوع والنكاح والطلاق، وكذلك في مسائل كثيرة من باب الطهارة وهيئات الصلاة، وسائر العبادات، فصاروا باختلافهم في هذه الأشياء محمودين.

وكان هذا النوع من الاختلاف رحمة من الله لهذه الأمة، حيث أيَّدهم باليقين، ثم وسَّعَ علىٰ العلماء النظرَ فيما لم يجدوا حكمه في التنزيل والسنة.

فكانوا مع هذا الاختلاف أهلَ مودةٍ ونصح، وبقيت بينهم أخوةُ الإسلام، ولم ينقطع عنهم نظام الألفة، فلمَّا حدثت هذه

الأهواء المُرْدِيةُ الداعيةُ صاحبَها إلىٰ النار؛ ظهرت العداوة، وتباينوا، وصاروا أحزاباً، فانقطعت الأخوة في الدين وسقطت الألفة.

فهذا يدل علىٰ أن هذا التباين والفرقة إنما حدثت من المسائل المحدثة، التي ابتدعها الشيطان، فألقاها علىٰ أفواه أوليائه، ليختلفوا ويرمي بعضهم بعضاً بالكفر.

فكل مسألة حدثت في الإسلام؛ فخاض فيها الناس؛ فتفرقوا واختلفوا؛ فلم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضاً ولا تفرقاً، وبقيت بينهم الألفة والنصيحة والمودة والرحمة والشفقة، علمنا أن ذلك من مسائل الإسلام، يُحِلُّ النظرَ فيها، والأخذُ بقول من تلك الأقوال لا يوجب تبديعاً ولا تكفيراً، كما ظهر مثل هذا الاختلاف بين الصحابة والتابعين، مع بقاء الألفة والمودة.

وكل مسألة حدثت فاختلفوا فيها؛ فأورث اختلافهم في ذلك: التولي والإعراضَ والتدابرَ والتقاطعَ، وربما ارتقى إلىٰ التكفيرِ، علمتَ أن ذلك ليس من أمر الدين في شيءٍ، بل يجب علىٰ كل ذي عقل أن يجتنبها، ويُعرِض عن الخوض فيها، لأن الله شرط في تمسكنا بالإسلام؛ أننا نصبح في ذلك إخواناً، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].

ومَنْ تدبَّرَ ما كتبناه، وأعطىٰ من قلبه النِّصْفَةَ، وأعرض عن هواه، واستمع، وأصغى بقلبٍ حاضرٍ، وكان مسترشداً مستهدياً، ولم يكن متعنتاً، وأمدَّه الله بنور اليقين، عرف صحة جميع ما

قلناه، ولم يخف عليه شيء من ذلك، واللهُ الموفقُ، من يشأ الله يضللهُ ومن يشأ يجعله علىٰ صراط مستقيم.

نسأل الله تعالىٰ أن يثبتنا عليه، وأن يَمُدَّنا بتوفيقٍ بعد توفيقٍ من قِبله، وأن يجعل ما قصدناه من بيان الحق لوجهه، وسعينا لطلب ما عنده، إنه عليم قدير وولي كريم.

انتهى كلام ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ الذي جعله مقدمة لبداية إصلاحه لغلط أبي عبيد في كتابه غريب الحديث ليكون اغلاقاً لمن سيستخدم نقده انتقاصاً من ابن قتيبة لأبي عبيد.

نصائح لطالب العلم المبتدئ

ألَّف الشيخ عبدالقادر بن أحمد بن بدران رَحِمَهُ اللَّهُ (المتوفى: ١٣٤٦هـ) كتابه: **(المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل)**، وتكلم فيه عن مذهب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، وقواعده وأصوله والمؤلفات فيه، ثم ختم كتابه بقواعد مختصرة في كيفية تعلم طالب العلم للفقه، نختصر منها ما يسع له المقام هنا، حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ[١]:

اعلم أن كثيراً من الناس يقضون السنين الطوال في تعلم العلم، بل في علمٍ واحدٍ، ولا يحصلون منه علىٰ طائلٍ، وربماَ قضواَ أعمارهم فيهً؛ ولم يرتقوا عن درجة المبتدئين، وإنما يكون ذلك لأحد أمرين:

أحدهما: عدم الذكاء الفطري وانتفاء الإدراك التصوري، وهذا لا كلام لنا فيه، ولا في علاجه.

والثاني: الجهل بطرق التعليم، وهذا قد وقع فيه غالب المعلِّمين، فتراهم يأتي إليهم الطالب المبتدىء، ليتعلم النحو مثلاً، فيشغلونه بالكلام علىٰ البسملة، ثم علىٰ الحمدلة، أياماً بل شهوراً، ليوهموه سعة مداركهم، وغزارة علمهم، ثم إذا قُدِّرَ له الخلاصُ من ذلك؛ أخذوا يلقنونه متناً أو شرحاً بحواشيه

(١) المدخل إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل لعبدالقادر بن بدران (٤٨٥-٤٩٢).

وحواشي حواشيه، ويحشرون له خلاف العلماء، ويُشغلونَه بكلام من ردَّ علىٰ القائل، وما أجيب به عن الرد، ولا يزالون يضربون له علىٰ ذلك الوَتَرِ؛ حتىٰ يرتكز في ذهنه أن نَوالَ هذا الفنِّ من قبيل الصعبِ، الذي لا يصل إليه إلا من أوتي الولاية، وحضرَ مجلس القربِ والاختصاص، هذا إذا كان الملقِّنُ يفهم ظاهراً من عبارات المصنفين.

وقد تفطن قوم من علماء الشرع لذلك، فأثبتوا نتفاً من الكلام في هذا الموضوع، وغاية أمرهم أنهم يتكلمون علىٰ الفنون، فيذكرون الكتب المختصرة في الفن، والمتوسطة والمطولة، وربما كان ما ذكروه مشهوراً في أيامهم، ثم عزَّ وجوده وانقطع خبره،...

وحيث إن كتابي هذا مدخل لعلم الفقه، أحببت أن أذكر من النصائح ما يتعلق بذلك العلم فأقول:

لا جرم أن النصيحة كالفرض، وخصوصاً علىٰ العلماءِ، فالواجب الديني علىٰ المعلِّم إذا أراد إقراء المبتدئين: أن يُقرئهم أولاً كتاباً مختصراً في الفقه ككتاب أخصر المختصرات، أو الغاية لأبي شجاع، أو متن العشماوية، أو منية المصلي، حسب اختلاف مذاهب الفقهاء.

ويجب عليه أن يشرح له المتن بلا زيادة ولا نقصان، بحيث يفهم ما اشتمل عليه، ومبتغاه أن يصور مسائله في ذهنه، ولا يُشغله بما زاد علىٰ ذلك.

وقد كانت هذه طريقة شيخنا العلامة الشيخ محمد بن عثمان الحنبلي المشهور بخطيب دُوما، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لنا: لا ينبغي

لمن يقرأ كتاباً أن يتصور أنه يريد قراءته مرة ثانية، لأن هذا التصور يمنعه عن فهم جميع الكتاب، بل يتصور أنه لا يعودُ إليه مرة ثانية أبداً، وكان يقول: كل كتاب يشتمل علىٰ مسائل ما دونه وزيادة، فحققِّ مسائل ما دونهُ، لتُوفر جِدَّك علىٰ فهم الزيادة، انتهى كلامه[١].

ولما أخذتُ نصيحته مأخذَ القبولِ، لم أحتج في القراءة علىٰ الأساتذة في العلوم والفنون إلىٰ أكثر من ست سنين، فجزاه الله خيراً وأسكنه فراديس جنانه.

فإذا فرغ الطالب من فهم تلك المتون؛ نقلَهُ شيخه وأستاذه إلىٰ متن أعلىٰ منه في مذهبه، وليشرح له تلك الكتب علىٰ النَّمط الذي أسلفناه، فلا يتعداه إلىٰ غيره، لأن ذهن الطالب لم يزل كليلاً، ووَهَمَهُ لم يَزُلْ عنه بالكلية.

ثم إذا شرح له تلك الكتب، وكان قد اشتغل بفن العربية علىٰ النمط المتقدم، أوقفه هنالك، وأشغله بشرح أدنى مختصرٍ في مذهبه، في فن أصول الفقه، كالورقات لإمام الحرمين، فإذا أتمها نقله إلىٰ مختصر التحرير.

واعلم أنه لا يمكن للطالب أن يصير متفقهاً ما لم تكن له دراية بالأصول، ولو قرأ الفقه سنيناً وأعواماً، ومن ادعى غير ذلك كان كلامه إما جهلاً وإما مكابرةً.

فإذا انتهى من هذه الكتب وشرْحِهَا شرحَ من يَفهمُ العباراتِ ويُدرِكُ بعض الإشاراتِ، نقله شيخُه إلىٰ كتب أطول منها، حسب اختلاف المذاهب.

---

(١) يعني انتهى كلام الشيخ محمد بن عثمان الحنبلي.

فإذا فرغ من هذه الكتبِ وشرحِهَا، بفهمٍ واتقانٍ؛ قرأ ما شاء، وطالع ما أراد، فلا حجر عليه بعد هذا.

واعلم أن للمطالعة وللتعليم طرقاً، ذكرها العلماء، وإننا نثبت هنا ما أخذناه بالتجربةِ، ومن ذلك أننا اهتدينا بفضله تعالىٰ أثناء الطلب إلىٰ قاعدة، وهي أننا كنا نأتي إلىٰ المتن أولاً، فنأخذ منه جملة كافية للدرس، ثم نشتغل بحلِّ تلك الجملة من غير نظرٍ إلىٰ شرحِها، ونُزاولُها حتىٰ نظنَّ أننا فهمنا، ثم نُقبِل علىٰ الشرح، فنطالعه المطالعةَ الأولى، امتحاناً لفهمنا، فإن وجدنا فيما فهمناه غلطاً صحَّحناه، ثم أقبلنا علىٰ تَفهم الشرح علىٰ نمط ما فعلناه في المتن، ثم إذا ظننا أننا فهمناه؛ راجعنا حاشيته، إن كان له حاشية، مراجعة امتحانٍ لفكرنا، فإذا علمنا أننا فهمنا الدرس؛ تركنا الكتاب، واشتغلنا بتصوير مسألةٍ في ذهننا، فحفظناه حفظَ فهمٍ وتصورٍ، لا حفظَ تراكيبَ وألفاظٍ، ثم نجتهد علىٰ أداء معناه بعباراتٍ من عندنا، غير ملتزمين تراكيبَ المؤلف، ثم نذهب إلىٰ الأستاذ للقراءة، وهنالك نمتحن فكرنا في حلِّ الدرس، ونُقوِّمُ ما عساه أن يكون به من اعوجاجٍ، ونُوفِّرُ الهمة علىٰ ما يورده الأستاذ، مما هو زائد علىٰ المتن والشرح، وكُنا نرى أن من قرأ كتاباً واحداً من فنٍّ علىٰ هذه الطريقة؛ سَهُلَ عليه جميع كتب هذا، مختصراتها ومطولاتها، وثبتت قواعده في ذهنه، وكان الأمر علىٰ ذلك.

ثم إن الأولى في تعليم المبتدىء: أن يجنِّبه أستاذه عن إقرائه الكتبَ الشديدةَ الاختصار، العسِرةِ علىٰ الفهم، لأن فيه مع ذلك شغلٌ كبيرٌ علىٰ المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار، العويصةِ

للفهم، بتزاحم المعاني عليها، وصعوبةِ استخراجِ المسائلِ من بينها، لأنَّ ألفاظ المختصراتِ تجدها لأجلِ ذلك صعبةً عويصةً، فينقطع في فهمها حظٌّ صالحٌ من الوقت، كما أشار إلىٰ ذلك ابن خلدون في مقدمته.

وحاصل الأمر؛ أن الأستاذ ينبغي أن يكون حكيماً، يتصرف في طرقِ التعليم بحسب ما يراه موافقاً لاستعداد المتعلم، وإلا ضاعَ الوقتُ بقليلٍ من الفائدةِ، وربما لم توجد الفائدةَ أصلاً، وطرق التعليم أمرٌ ذوقيٌ، وأمانةٌ مودعةٌ عند الأساتذة، فمن أداها أثيب علىٰ أدائها، ومن جحدها كان مطالباً بها.

انتهى كلام ابن بدران رَحِمَهُ اللَّهُ، كما نسأله سبحانه أن يرزقنا علماً نافعاً لنا ولغيرنا، وأن يجعلنا هداة مهتدين.

صفة خطب النبي ﷺ

إن خير الهدي هدي محمد ﷺ، وإن من أحوج ما يحتاج إليه الداعي إلىٰ الله تعالىٰ أن يقتدي بهديه ﷺ في كلِّ شأنه، ومن ذلك في خطبته الجمعة ووعظه للناس، وقد اختصر الإمام ابن القيم في كتابه **(زاد المعاد في هدي خير العباد) وصفاً لخطبته ﷺ)**، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وكذلك كانت خطبته ﷺ، إنما هي تقريرٌ لأصولِ الإيمانِ، من الإيمانِ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وذكر الجنة، والنار، وما أعدَّ اللهُ لأوليائه وأهل طاعته، وما أعدَّ لأعدائه وأهل معصيته، فيملأُ القلوبَ من خطبته إيماناً وتوحيداً، ومعرفةً باللهِ وأيامهِ، لا كخطبِ غيرهِ التي إنَّما تفيد أموراً مشتركةً بين الخلائقِ، وهي النوحُ علىٰ الحياةِ، والتخويفُ بالموتِ، فإنَّ هذا أمرٌ لا يُحصِّلُ في القلبِ إيماناً باللهِ، ولا توحيدًا له، ولا معرفةً خاصةً به، ولا تذكيراً بأيامهِ، ولا بعثاً للنفوسِ علىٰ محبته والشوقِ إلىٰ لقائهِ، فيخرجُ السامعون ولم يستفيدوا فائدةً، غيرَ أنهم يموتونَ، وتُقسمُ أموالهمْ، ويُبلِي الترابُ أجسامَهم، فيا ليتَ شعري أيُّ إيمانٍ حصلَ بهذا؟! وأيُّ توحيدٍ ومعرفةٍ وعلمٍ نافعٍ حصلَ به؟!.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية (١/ ٤٠٩-٤١٦).

ومن تأمل خطبَ النبي ﷺ، وخطبَ أصحابِهِ، وجدها كفيلةً ببيانِ الهدى والتوحيدِ، وذكرِ صفاتِ الربِّ جلَّ جلالُه، وأصولِ الإيمانِ الكليةِ، والدعوةِ إلىٰ اللهِ، وذكرِ آلائِهِ تعالىٰ التي تحبِّبُهُ إلىٰ خلقهِ وأيامهِ التي تخوِّفهم من بأسهِ، والأمرِ بذكرهِ وشكرهِ الذي يحبِّبُهم إليهِ، فيَذكرون من عظمةِ اللهِ وصفاتهِ وأسمائهِ، ما يحبِّبُهُ إلىٰ خلقهِ، ويأمرون من طاعتهِ وشكرهِ وذكرهِ ما يحبِّبهم إليهِ، فينصرفُ السامعون وقد أحبوهُ وأحبَّهم.

ثم طالَ العهدُ، وخفيَ نورُ النبوةِ، وصارت الشرائعُ والأوامرُ رسوماً تقام من غير مراعاةِ حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورَها، وزيَّنُوها بما زيَّنُوها بهِ فجعلوا الرسومَ والأوضاعَ سُنناً لا ينبغي الإخلالُ بها، وأخلوا بالمقاصدِ التي لا ينبغي الإخلالُ بها، فرصَّعوا الخطبَ بالتسجيعِ والفِقَرِ، وعلم البديعِ، فنقصَ بل عُدِمَ حظُّ القلوبِ منها، وفاتَ المقصودُ بها.

أما هديُّه ﷺ في خطبهِ فإنه كان إذا خطبَ، احمرَّت عيناهُ، وعلا صوتهُ، واشتدَّ غضبهُ حتىٰ كأنه منذرُ جيشٍ، يقول: «**صبَّحكم ومسَّاكم**»، ويقول: «**بُعثت أنا والساعةُ كهاتين، ويقرِن بين أصبُعيهِ السبابةَ والوسطى**»، ويقول: «**أما بعدُ، فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابَ اللهِ، وخيرَ الهديِّ هديَّ محمدٍ، وشرَّ الأمورِ محدثاتها، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ**»، ثم يقول: «**أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسهِ، من ترك مالاً، فلأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً، فإليَّ وعليَّ**» رواه مسلم[(١)].

وفي لفظ: كانت خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة، يحمدُ اللهَ

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧).

ويثني عليهِ، ثم يقول علىٰ إثرِ ذلك وقد علا صوته فذكرَهُ...، وفي لفظٍ: يحمدُ اللهَ ويثني عليهِ بما هوَ أهلُهُ، ثم يقول: «**من يهدِ اللهُ، فلا مضلَّ لهُ، ومن يضلل، فلا هاديَ له، وخيرَ الحديثِ كتابَ اللهِ**»(١).

وفي لفظ للنسائي: «**وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النارِ**»(٢).

وكان يقولُ في خطبته بعد التحميدِ والثناءِ والتشهدِ "أما بعد".

وكان يُقصِّرُ الخطبةَ، ويطيلُ الصلاةَ، ويكثرُ الذكرَ، ويقصدُ الكلماتِ الجوامعَ، وكان يقول: «**إن طولَ صلاةِ الرجلِ وقِصَرَ خطبتِهِ، مئنةٌ من فقههِ**»(٣).

وكان يُعلِّمُ أصحابه في خطبته قواعدَ الإسلام، وشرائعَهُ، ويأمرَهم وينهاهُم في خطبته إذا عرضَ له أمرٌ، أو نهيٌ، كما أمرَ الداخلَ وهو يخطبُ أن يصليَ ركعتين.

ونهى المتخطيَ رقابَ الناسِ عن ذلك، وأمرَهُ بالجلوس، وكان يقطعُ خطبتهُ للحاجةِ تعرِضُ، أو السؤالِ من أحدِ من أصحابه، فيجيبهُ، ثم يعود إلىٰ خطبتِهِ، فيتِّمُها.

وكان ربما نزلَ عن المنبرِ للحاجةِ، ثم يعودُ فيتمَّها، كما نزلَ لأخذِ الحسنِ والحسينِ رضي الله عنهما، فأخذهما، ثم رَقيَ بهما

(١) رواه الإمام مسلم في نفس الموضع السابق.
(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى كتاب العلم باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى العالم ما يكره (٥٨٦١).
(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٩).

المنبر، فأتمَّ خطبتهُ.

وكان يدعو الرجلَ في خطبتهِ: تعالَ يا فلانُ، اجلسْ يا فلانُ، صلِّ يا فلانُ.

وكان يأمرَهم بمقتضى الحالِ في خطبته، فإذا رأى منهم ذا فاقةٍ وحاجةٍ، أمرهمْ بالصدقةِ، وحضَّهم عليها.

وكانَ يشيرُ بأصبعهِ السبابةَ في خطبتهِ عند ذكرِ الله تعالىٰ ودعائهِ.

وكان يستسقي بهم في خطبتهِ إذا قحطَ المطرُ.

وكان يُمهلُ يومَ الجمعةِ حتىٰ يجتمعَ الناسُ، فإذا اجتمعوا، خرجَ إليهم وحدَهُ من غير شاويشٍ يصيحُ بين يديهِ، ولا لُبْسِ طيلَسانٍ، ولا طَرْحةٍ، ولا سَوادٍ، فإذا دخلَ المسجدَ، سلَّمَ عليهم، فإذا صعدَ المنبرَ، استقبلَ الناسَ بوجههِ، وسلَّم عليهم، ولم يدعُ مستقبلَ القبلةِ، ثم يجلسُ، ويأخذُ بلالٌ في الأذانِ، فإذا فرغَ منه، قامَ النبي ﷺ فخطبَ من غيرِ فصلٍ بين الأذانِ والخطبةِ، لا بإيرادِ خبرٍ ولا غيرِه.

ولم يكن يأخذُ بيدِهِ سيفاً ولا غيرَهُ، وإنما كانَ يعتمد علىٰ قوسٍ أو عصا قبلَ أن يتخذَ المنبرَ، وكان في الحربِ يعتمدُ علىٰ قوسٍ، وفي الجمعة يعتمدُ علىٰ عصا، ولم يُحفظ عنه أنه اعتمدَ علىٰ سيفٍ، وما يظنُّه بعضُ الجهالِ أنه كان يعتمدُ علىٰ السيفِ دائماً، وأن ذلك إشارةٌ إلىٰ أن الدينَ قامَ بالسيفِ، فمنْ فرطِ جهلهِ، فإنه لا يُحفظُ عنه بعد اتخاذِ المنبرِ أنَّه كان يرقاه بسيفٍ، ولا قوسٍ، ولا غيرهِ، ولا قبل اتخاذهِ أنه أخذَ بيدهِ سيفاً البتةَ، وإنما كانَ يعتمد علىٰ عصا أو قوسٍ.

وكان منبرُهُ ثلاثَ درجاتٍ، وكانَ قبل اتخاذِهِ يخطبُ إلىٰ جذعٍ يستندُ إليهِ، فلمَّا تحوَّلَ إلىٰ المنبرِ، حَنَّ الجذعُ حنيناً سمعهُ أهلُ المسجدِ، فنزلَ إليهِ ﷺ وضمَّهُ.

ولم يوضع المنبرُ في وسطِ المسجدِ، وإنما وُضِعَ في جانبه الغربيِّ قريباً من الحائطِ، وكان بينه وبين الحائطِ قدرُ ممرِّ الشاةِ.

وكانَ إذا جلسَ عليهِ النبيُّ ﷺ في غيرِ الجمعةِ، أو خطبَ قائماً في الجمعة، استدارَ أصحابُهُ إليه بوجوهِهم، وكان وجهُهُ ﷺ قِبَلَهُم في وقتِ الخطبةِ.

وكانَ يقومُ فيخطبُ، ثم يجلسُ جلسةً خفيفةً، ثم يقومُ، فيخطبُ الثانيةَ، فإذا فرغَ منها، أخذَ بلالٌ في الإقامةِ.

وكانَ يأمرُ الناسَ بالدنوِّ منهُ، ويأمرُهم بالإنصاتِ، ويُخبرُهم أن الرجلَ إذا قالَ لصاحبِهِ: أنصتْ فقد لغا، ويقول: «**مَنْ لغا فلا جمعةَ له**»[(١)].

إلىٰ آخر كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف خطبته ﷺ التي ينبغي أن يكون الخطيب والداعي ممتثلاً لهديه ﷺ فيها.

(١) رواه عبدالرزاق في المصنف كتاب الجمعة باب ما يقطع الجمعة (٥٤٢٠).

المساهمة في طباعة الكتب وتعليم الناس

فضلُ العلم وتعليمِهِ؛ وفضلُ الدعوةِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ؛ وما سيجده الداعي إلَىٰ اللهِ تعالىٰ بالبصيرةِ والحكمةِ الحسنةِ؛ إنْ هو أخلصَ النيةَ، وصدقَ مع اللهِ، ليس ثوابُها قاصراً علىٰ من باشرَ العلمَ والدعوةَ بنفسِهِ، بل إنَّ فضلَ اللهِ واسعٌ، فيشمل بالأجرِ كلَّ من أعانَ أو ساهمَ في ذلك بأيِّ صورِ المساهمة، وهذا ما دلت عليه الآيات والأحاديث، وهو ما أكَّد عليه العلماء المتقدمون والمتأخرون، وممن تكلم عن ذلك فضيلة الشيخ عبدالرزاق بن عفيفي بن عطية العفيفي، عضو اللجنة الدائمة للإفتاء سابقاً رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال عن فضل العلم وتعليمه، وفضل من أعان علىٰ العلم والدعوة بوسائلهما المتنوعة، وأسبابهما الكثيرة، من طبعِ الكتبِ النافعةِ والرسائلِ المفيدةِ، وغير ذلك، وأنهم مماثلون للداعي والعالمِ في الأجرِ، إنْ صدقوا مع اللهِ في ذلك، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وبعد، فالعلمُ نورٌ يتبيَّن به الضار مُن النافع، ويتميزُ به الخبيثُ من الطيبِ، فمن أخذَ به أخذَ بحظٍّ وافرٍ، سيما علومَ الدينِ التي تُفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ، والهدى والضلالِ، فتُبصِّر العبدَ بربه، وتعرِّفهُ بحقهِ سبحانه وحقِّ عبادِه، تكسبه رُشدًا بعد غيٍّ، وتفتحُ منه أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلفًا، وبذلك

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق العفيفي (٦٠٧-٦٠٩).

ينعمُ في دنياهُ، ويسعدُ السعادةَ الأبديةَ في أخراهُ، ولا يكاد يُعرفُ إنسانٌ ناجحٌ في الحياةِ العمليةِ من عبادةٍ أو دراسةٍ أو كتابةٍ أو سياسةٍ أو صناعةٍ أو زراعةٍ أو غير ذلك، إلا من كان علىٰ بينةٍ وبصيرةٍ بالوسائل العلميةِ التي يتوقف عليها عملُه.

مِنْ هذا كان للعلم مزيتُهُ وفضيلتُهُ، ومكانتُهُ في الحياةِ العاجلةِ والآجلةِ، ولهذا سارعَ في طلبهِ العقلاءُ، وتنافسَ فيه المتنافسون، وبه تفاوتَ الكثيرُ من الناسِ في منازلهم ودرجاتهم، حسب تفاوتهم في مداركهم وتحصيلهم وإنتاجهم، وبه انتظمَ الكونُ ونهضت الأممُ، وكان لمن برزَ فيه القدحُ المعلَّى، والمقامُ الأسمى.

وإنما يكون ذلك لمن سدَّد الله خطاه، وبصَّرهُ بشئون دينه ودنياه، فعَلِمَ وعلَّمَ، وكان مثالاً يُحتذى في قولِهِ وعملهِ، وسيرتهِ وخلقهِ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمَر]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فَاطِر]، وقال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرّعد].

وليست منافعُ العلم وآثارُه، وأجرُهُ وثوابُهُ، وقفًا علىٰ من عَلِمَ وعلَّم، وألَّفَ ودوَّنَ، بل ينال ذلك بفضلِ اللهِ ورحمتهِ من

أعانَ عليه بوسائلِهِ المتنوعةِ، وأسبابِهِ الكثيرةِ، من طبعِ الكتبِ النافعةِ والرسائلِ المفيدةِ، ونشرها بين طلابِ العلمِ، وتيسيرِ طريقِ وصولها إلىٰ أيديهم، وإنشاءِ المباني المناسبةِ لدراستهم وسُكناهم، وبذلِ ما يلزمُ لفقرائهم من النفقات، والسخاءِ بما يكفلُ لهم راحةَ بالهم، وتفرُّغهم لما قصدوا إليه، ليتوفروا علىٰ الدراسةِ والتحصيلِ، ويتمكَّنوا من التأليفِ والتبليغِ، فإن للوسائلِ حكم مقاصدِها، والساعي في الخيرِ كفاعلِه، «**وإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**»[(١)]، وفي الحديث: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجلٍ آتاه الله مالاً فسلَّطهُ علىٰ هَلَكَتهِ في الخير، ورجلٍ آتاه الله الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلِّمها الناس**»[(٢)].

ولقد انتدَبَ في عصرنا جماعةٌ من ذوي الوجاهةِ والثراءِ، للإسهام في نشرِ العلوم الإسلامية، وأخذتهم أريحيَّةُ الكرم والجودِ، وهزَّتْ مشاعرَهم الآياتُ والأحاديثُ التي حثَّت علىٰ البلاغِ ونشرِ الدين، فبذلوا الأموالَ الطائلةَ في طبعِ الكتبِ والرسائلِ النافعةِ، استجابةً لما وقرَ في قلوبهم من الإيمان الصادق، وغيرةً علىٰ الإسلامِ وأهلِهِ، ورغبةً في الأجرِ والمثوبةِ

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ (١).

(٢) هذا لفظ الإمام أحمد في المسند (٣٦٥١)، وهو مروي في الصحيحين بدون كلمة (الناس) فرواه البخاري في كتاب العلم باب الاغتباط في العلم (٧٣).

عند اللهِ، وليكونَ له ذلكَ لسانَ صدقٍ في الآخرين، فيقتفيَ آثارَهم من بعدَهم من المحسنين، ويصنَعَ مثلَ صنيعهم، وتلهجَ ألسنتُهم بالدعاءِ بالرحمةِ والمغفرةِ لهم.

أسألُ الله أن يوزعَ الجميعَ شكرَ نِعمهِ، ويهبَ لنا عزيمةً صادقةً، وهمةً عاليةً، ونيةً صالحةً، وأن يجعل أعمالنا خالصةً لوجهه الكريم، ويجعل ما ذُكرَ من الثناءِ والمحامدِ حافزًا لأهل الخيرِ إلىٰ الإكثارِ من فعل البرِّ والإحسانِ، ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ، وطلبًا للحسنى والمثوبةِ عندَه، يومَ لا ينفعُ المرءَ إلا ما قدَّمت يداه، إنه جواد كريم رءوف رحيم.

انتهى كلام الشيخ عبدالرزاق عفيفي رحمه الله تعالىٰ.

ما يكون به صلاح الدنيا

قال الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، في كتابه الماتع (أدب الدنيا والدين) بعد أن انتهى من ذكر أدب العلم، ثم أدب الدين، عقد باباً في أدب الدنيا، وابتدأه باختصار ما تصلح به الدنيا في ستِّ قواعدَ، نختصر كلامه عنها، وإلَّا فحقُّ كلِّ قاعدةٍ منها تفصيلٌ كثيرٌ، قال رحمه الله تعالىٰ[١]:

اعلم أن ما به تصلحُ الدنيا حتىٰ تصيرَ أحوالها منتظمةً، وأمورها ملتئمةً، ستةُ أشياءَ هي قواعدُها، وإن تفرَّعت، وهي: دِينٌ متبعٌ، وسلطانٌ قاهرٌ، وعدلٌ شاملٌ، وأمنٌ عامٌ، وخصبٌ دائمٌ، وأملٌ فسيحٌ.

فأما **القاعدة الأولى**: فهي الدينُ المتَّبعُ، فلأنه يصرفُ النفوس عن شهواتها، ويعطِف القلوب عن إرادتها، حتىٰ يصير قاهراً للسرائر، زاجراً للضمائر، رقيباً علىٰ النفوس في خلواتها، نصوحاً لها في ملماتها.

وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين إليها، ولا يصلحُ الناس إلا عليها، فكأنَّ الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها.

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي (١٣٣-١٤٥) بتصرف.

ولذلك لم يُخلِ الله تعالىٰ خلقَه، مُذ فطرهم عقلاءَ، من تكليفٍ شرعيٍّ، واعتقادٍ ديني ينقادون لحكمه، فلا تختلف بهم الآراء، ويستسلمون لأمره؛ فلا تتصرف بهم الأهواء.

وما كان به صلاح الدنيا والآخرة؛ فحقيقٌ بالعاقل أن يكون به متمسِّكاً، وعليه محافظاً.

وأما **القاعدة الثانية**: فهي سلطانٌ قاهرٌ، تأتلف من رهبته الأهواء المختلفة، وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة، وتكفُّ بسَطوته الأيدي المتغالبة، وتمتنع من خوفه النفوس العادية؛ لأنَّ في طِباع الناس من حُبِّ المغالبة علىٰ ما آثروه، والقهرِ لمن عاندوه، ما لا ينكفُّون عنه إلا بمانعٍ قويٍّ، ورادعٍ مليٍّ.

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء: إما عقلٌ زاجرٌ، أو دينٌ حاجرٌ، أو سلطانٌ رادعٌ، أو عجزٌ صادٌّ.

فإذا تأملتَها لم تجد خامساً يقترن بها، ورهبةُ السلطان أبلغُها؛ لأن العقل والدين ربما كانا مضعُوفَين، أو بدواعي الهوى مغلوبَين، فتكون رهبةُ السلطانِ أشدُّ زجراً، وأقوى ردعاً.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله ليَزَعُ بالسلطان أكثرَ مما يزعُ بالقرآن**»[(١)].

ثم لما في السلطان من حراسةِ الدين والدنيا، والذبِّ عنهما، ودفعِ الأهواءِ منه، وحراسة التبديل فيه، وزجر من شذَّ عنه بارتداد، أو بَغَى فيه بعنادٍ، أو سعى فيه بفسادٍ، وهذه أمورٌ

(١) قال العامري في كتابه (الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث) (٦٠): (جاء عن عثمان موقوفا ونحوه عن عمر موقوف)، ورواية عمر رواها الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٤/ ١٠٧).

إن لم تنحسم عن الدين بسلطانٍ قويٍّ، ورعايةٍ وافيةٍ، أسرع فيه تبديلُ ذوي الأهواءِ، وتحريفُ ذوي الآراء، فليس دينٌ زال سلطانُه إلا بُدِّلت أحكامُه، وطُمست أعلامُه، وكان لكل زعيمٍ فيه بدعةٌ، ولكل عصرٍ فيه وِهايةُ أثرٍ.

كما أن السلطانَ إن لم يكن علىٰ دينٍ تجتمع به القلوبُ، حتىٰ يرى أهلُه الطاعةَ فيه فرضاً، والتناصرَ عليه حتماً، لم يكن للسلطان لُبثٌ، ولا لأيامه صفوٌ، وكان سلطانَ قهرٍ، ومفسدةَ دهرٍ.

ومن هذين الوجهين وجبَ إقامة إمام يكون سلطانَ الوقتِ، وزعيمَ الأمةِ، ليكون الدينُ محروساً بسلطانِه، والسلطانُ جارياً علىٰ سَنَنِ الدينِ وأحكامِه.

وأما **القاعدة الثالثة**: فهي عدلٌ شاملٌ، يدعو إلىٰ الأُلفة، ويبعثُ علىٰ الطاعةِ، وتتعمَّر به البِلادُ، وتنمو به الأموالُ، ويكثرُ معه النسلُ، ويأمنُ به السلطانُ.

وليس شيءٌ أسرعَ في خرابِ الأرضِ، ولا أفسدَ لضمائر الخلقِ، من الجور؛ لأنه ليسَ يقفُ علىٰ حدٍّ، ولا ينتهي إلىٰ غايةٍ، ولكل جزءٍ منه قسطٌ من الفسادِ حتىٰ يستكملَ.

فإذا كان العدل من إحدى قواعدِ الدنيا، التي لا انتظامَ لها إلا بهِ، ولا صلاحَ فيها إلا معه، وجبَ أن نبدأ بعدلِ الإنسان في نفسهِ، ثم بعدلهِ في غيرهِ.

فأما عدلُه في نفسِهِ فيكون بحملِها علىٰ المصالحِ، وكفِّها عن القبائحِ، ثم بالوقوفِ في أحوالها علىٰ أعدلِ الأمرين، من تجاوزٍ أو تقصيرٍ.

وأما عدلُه في غيره، فهو علىٰ ثلاثة أقسام:

الأولُ: عدلُ الإنسان فيمن دونَه، كالسلطانِ في رعيته، والرئيسِ مع أصحابِهِ، وهكذا.

والثاني: عدلُ الإنسان مع مَنْ فوقه، كالرعيةِ مع سلطانِها، والصحبةِ مع رئيسها.

والثالث: عدلُ الإنسانِ مع أكفائه، ونظرائه.

وأما **القاعدة الرابعة**: فهي أمنٌ عامٌ، تطمئنُ إليه النفوسُ، وتنتشرُ فيه الهممُ، ويسكنُ إليه البريءُ، ويأنسُ به الضعيفُ، فليس لخائفٍ راحةٌ، ولا لحاذرٍ طمأنينةٌ.

وقد قال بعض الحكماء: الأمنُ أهنأُ عيشٍ، والعدلُ أقوى جيشٍ؛ لأن الخوفَ يقبضُ الناسَ عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرُّفهم، ويكفُّهم عن أسبابِ الموادِّ التي بها قِوامُ أوَدِهم وانتظامُ جملتِهم؛ لأن الأمنَ من نتائجِ العدلِ، والجورَ من نتائج ما ليس بعدلٍ.

وأما **القاعدة الخامسة**: فهي خصبٌ دارٌّ، تتسعُ النفوسُ به في الأحوالِ، ويشترك فيه ذو الإكثارِ والإقلالِ.

فيَقلُّ في الناس الحسدُ، وينتفي عنهم تباغضُ العَدمِ، وتتسع النفوسُ في التَّوسعِ، وتكثر المواساةُ والتواصلُ، وذلك من أقوى الدواعي لصلاحِ الدنيا وانتظامِ أحوالها، ولأنَّ الخصبَ يؤولُ إلىٰ الغنى، والغنى يورثُ الأمانةَ والسخاء.

وأما **القاعدة السادسة**: فهي أملٌ فسيحٌ، يبعثُ علىٰ اقتناءِ ما يَقصُرُ العمرُ عن استيعابِهِ، ويبعثُ علىٰ اقتناءِ ما ليسَ يؤمَلُ في دَرَكِه بحياةِ أربابِهِ، ولولا أن الثاني يرتفقُ بما أنشأهُ الأولُ، حتىٰ

يصيرَ به مستغنياً، لافتقرَ أهلُ كل عصرٍ إلىٰ إنشاءِ ما يحتاجونَ إليه من منازلِ السكنى وأراضي الحرثِ، وفي ذلك من الإعوازِ، وتعذُّرِ الإمكانِ ما لا خفاءَ به.

فلذلك ما أرفقَ اللهُ تعالىٰ خلقَهُ باتساعِ الآمالِ، إلا حتَّى عَمرَ بهِ الدنيا، فعمَّ صلاحُها، وصارت تنتقلِ بعُمرانها إلىٰ قرنٍ بعد قرنٍ، فيُتمُّ الثاني ما أبقاهُ الأولُ من عِمارتها، ويُرمِّمُ الثالثُ ما أحدَثهُ الثاني من شَعثِها، لتكون أحوالُها علىٰ الأعصارِ ملتئمةً، وأمورُها علىٰ ممرِّ الدهورِ منتظمةً.

ولو قصُرتْ الآمالُ ما تجاوزَ الواحدُ حاجةَ يومِهِ، ولا تَعدَّى ضرورةَ وقتِهِ، ولكانت تنتقلُ إلىٰ من بعدَهُ خراباً لا يجدُ فيها بُلْغةً، ولا يُدرِكُ منها حاجةً، ثم تنتقلُ إلىٰ من بعدَهُ بأسوأَ من ذلك حالاً، حتَّى لا يَنمَى بها نبتٌ، ولا يُمكنُ فيها لبثٌ.

فهذه القواعدُ الستُّ التي تصلحُ بها أحوالُ الدنيا، وتنتظمُ أمورُ جملتِها، فإن كَمُلَت فيها كَمُلَ صلاحُها، وبعيدٌ أن يكون أمرُ الدنيا تاماً كاملاً، وأن يكونَ صلاحُها عاماً شاملاً؛ لأنها موضوعةٌ علىٰ التغييرِ والفناءِ، مُنشأةٌ علىٰ التصرُّمِ والانقضاءِ، وبحسبِ ما اختلَّ من قواعدِها يكون اختلالُها.

انتهى ملخص كلام الماوردي رَحِمَهُ اللهُ عن القواعد التي تصلح بها أحوال الدنيا.

فهرس المحتويات

الموضوع	المصدر	الصفحة
المقدمة		٥
تعامل المعلم مع طلابه	ابن تيمية	٩
التعامل مع المخالف	ابن سعدي	١١
طالب العلم والهوى	المعلمي	١٤
العالم الذي يؤخذ عنه	الشاطبي	١٧
فضل العلم وحضور مجالسه	ابن حزم	٢٢
ما يقدم في الحفظ	ابن الجوزي	٢٥
العلم الذي يورث الخشية	ابن رجب	٢٧
مسؤولية طالب العلم	ابن باز	٣١
التواصل بين العلماء والدعاة	المعلمي	٣٥
تخول الموعظة مخافة السآمة	ابن جبرين	٤٠
التعالم في الفتوى	بكر أبو زيد	٤٣
زكاة العلم	السفاريني	٤٧
الغيرة علىٰ وقت الداعية والعالم	ابن القيم	٥١
اهتمام الداعية بالسنة النبوية	الألباني	٥٥
آفة العلم النسيان	المناوي	٦٠
السماحة لدى الداعية والعالم	ابن عاشور	٦٤
هل يدرك الدين بعقله أم لا بد من العلم	الأصفهاني	٦٩
حقوق الأخوة والصحبة	القاسمي	٧٣
ضرر بهرجة العالم والمفتي	ابن أبي جمرة	٧٧
كيف يؤدي المثقفون واجبهم نحو الأمة؟	البشير الإبراهيمي	٨١
القسوة في تتبع زلل الداعية وطالب العلم	البقاعي	٨٦
الرجوع عن الخطأ من تمام عقل العالم	التويجري	٩١

الموضوع	المصدر	رقم الصفحة
اللهم اجعلنا هداة مهتدين	ابن رجب	٩٦
نصيحة للدعاة والمرشدين	محمد بن إبراهيم	١٠١
أسباب التعصب للرأي الباطل	الشوكاني	١٠٦
وإنك لعلىٰ خلق عظيم	عطية سالم	١١١
آداب يشترك فيها المعلم والمتعلم	بدر الدين الغزي	١١٦
شكر الوالدين	الطرطوشي	١٢١
بين المعلم والمتعلم	ابن العربي	١٢٥
مناصحة العلماء للحكام	الإمام مالك	١٢٨
ردود العلماء بعضهم علىٰ بعض	ابن قتيبة	١٣٣
الفرق بين أصحاب الحديث وأصحاب البدع	السمعاني	١٣٧
نصائح لطالب العلم المبتدئ	ابن بدران	١٤٢
صفة خطب النبي ﷺ	ابن القيم	١٤٧
المساهمة في طباعة الكتب وتعليم الناس	عبدالرزاق عفيفي	١٥٢
ما يكون به صلاح الدنيا	الماوردي	١٥٦
فهرس المحتويات		١٦١